أذان السندباد

أذني السندباد
رؤية
إيمان الدواخلي
تصميم الغلاف: إيمان الدواخلي
المراجعة اللغوية: إيمان الدواخلي
رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢١٨
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٢٩-٧

دار اكتب للنشر والتوزيع

اكتب
OKTOB.NET دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ،خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة .

هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥

E – mail :daroktob١@yahoo.com

دار أكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، ٢٠١٣ م

أذان السندباد

إيمان الدواخلي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

يا سندباد.. أدمنت فرحة الاغتراب.. أمرٌ عجيبٌ بين أحوال البشر.. الكل يبغي المستقر، وأنت لا.. تبغي المشقة والسفر.

يا سندباد.. أتعبتنا.. أرهقتنا بالانتظار.. والصبر طال.. حتى بفرحة عودتك هددتنا.. فالحزن آتٍ بالفراقِ مجددًا.. سطوتك تحرمنا السؤال.. "إلى متى؟"

يا سندباد.. حل الوثاق.. أي المواثيقُ ستنفع؟ قد تبدد عهدنا.. قد تحول بالسنين وبالرحيل لسجننا.. هل يريحك أن سيُهدر دمنا؟.. ماذا يهمك إن فككنا قيدنا؟.. فزلال عهدك حبر أقلامٍ مراق.. يكفي بنا أطباق شوقٍ دونما أدنى مذاق.

يا سندباد...!

...

ليس هذا ما تريد.. مزّق هذه الورقة أو امح سطورها. تتمنى منها دومًا، ودومًا هي لا تفعل.

تعصف بك الأفكار، ولكن تلك التي تومض من بعيد تحديدا، تصر على قهرها ودفنها في أشد تجاويف مخك عمقا وتيها.

...

يا سندباد.. إني أقول وأنت تنكر ما أقول.. أوسوف تدفن مشهدي؟.. يا ويح إبليس العقول!..

يا سندباد.. أدرِك بقايا الأمر أفضل من هروب.. بالله لا تدعْ

الشموسَ إلى غروب.. والبيت ضُمه في جناحك وانتبه، واغلق شبابيكك عن الريح الهَبوب.

...

مرة أخرى تمزقها، وتذهب إلى الفراش نافخا بقوة. لك ذلك. أرى قبر الحقيقة لم يزل به تحت الرماد اشتعال. دقات قلبك أحس بها تضرب صدرك، وأنت تتحجج بالإرهاق، أو ربما السجائر. منذ صغرك وأنت هكذا عنيد.

...

يرن جرس المنبه، فتستيقظ مفزوعا كعادتك.. وتنهض كارها كعادتك.. في روتين حفظته، تقوم بكل المطلوب دون تفكير أو إدراك، حتى تجد نفسك أخيرا على مكتبك.. وساعات جديدة من التوجس وانتظار لحظة الوجع المتجددة —كالعادة أيضا —.

لكن اليوم ارتعاشتك أقوى، تركيزك أقل، ذلك الألم بفم معدتك يزداد أكثر، والأوراق لا تنتهي، ونظرات "مسئولك" لا تكف عن متابعتك. في النهاية لا تستطيع الاستمرار، في خفوت تسأله السماح لك بالانصراف.. ينظر إليك من فوق عدسات نظارته دون رد. لماذا تطلب ما تعرف أنه مرفوض؟ الخطأ عندك أيضا هذه المرة. لكنه يلاحظ أنك قد أنجزت دفاترك، وما بيدك هو ما كلفك به من دفاتره هو، يعض شفته في تفكر، ويبدو أنه يخشى أن تُحسب أخطاؤك عليه هو، إن أنت عملت بها وأنت بهذه الحال. فقط عندما يكون الأمر لصالحهم...

الآن أنت قد خرجت، لكن ماذا تفعل وموعد (باص) العمل لم يأت، ولا تمتلك سيارة؟.. قالوا لك كثيرا إن السيارة هنا هي يديك وقدميك، وطالما راتبك يسمح، فابحث عن واحدة تناسبك. لكنهم لا يعلمون.. من يعلم بما وراءك سيفهم تقتيرك الملفت.

تستوقفك متسولة، من أهل البلد، فلا تلتفت إليها وتستمر في سيرك. تثرثر بسبك وسب بلدك، التي أرسلتك إلى هنا، لتأكل رزق أهل البلد. يحمر وجهك غيظا، وتلتفت إليها، فتقف ناظرة لك في تحدٍ وقح. لا تنقصك المشاكل، في بلد يأكل الغرباء، فتعود إلى طريقك في صمت.

....

يا سندباد.. هي في عيونك كل شيء وكل ناسك والهواء.. كل المعاني والإباء.. من أجلها تحمل مشاعلك الضياء.. من أجلها قد تحتمل.. مهما اعتمل.. في جوف روحك الاستياء.

يا سندباد.. هي أولك.. هي ثانيك.. هي ثالثك.. لكن أنا.. في أي موقع قد أجدني؟.. أسألك.. وبأي موقع رد فعلي يجعلك؟.. أما علمت بَأن صبري يقتلك.. في داخلي.. ولسوف ألبس عن قريبٍ للحداد.

وأخيرا انتهى الأمر.. يمكنك أن تأتي بالسيارة.. يمكنك أن تضحك.. ويمكنك أن تداعب تلك التي تحمَّلت عبوسك طويلا،

واكتفت ببعض رسائل العتاب القليلة، ولم تقف أمام تجاهلك رسائلها.

تلوم نفسك أن يشوب حزنك تلك الراحة؛ لكن تبرر ذلك أنك لم تقصر.. يشهد الجميع لك أنك فعلت ما لم يفعلوا، ورغم معرفتك بعدم جدوى العلاج، أنفقت مالك وسنوات عمرك في الغربة لأجله. تمنيت من الله – فقط– أن تكون راضية عنك.. وقد قالت لك إنها راضية.

لكن تلك الأخرى.. أأفقت بعد كل تلك السنوات لتسأل عن سر اعتياديتها لحياتها بدونك؟.. لا شوق ولا رسائل عتاب ولا حتى مطالبة لك بالعودة.. هل تتذكر آخر مرة سألتك متى ستعود؟.. نعم هي تلك.. آه.. تهرب وتكذب، وتقول إنك لا تتذكر.. لكنها الحقيقة، التي تشتعل تحت رفات حقائق كثيرة.

لا تحزن أيها السندباد.. كلها رسائل قديمة لم تلتفت إليها، فقد كان لديك الأهم، وهو فعلا، لا ادعاءً، كان أهم.. ولكن الآن الرسالة الجديدة صريحة، لا عتاب فيها.. "كيف تعود وحال البلد إلى الأسوأ؟ وكيف نعيش حياة كريمة إذًا؟!".

كف عن الحديث إلى نفسك.. فقد حان وقتك كي تعيش.

(٢)

سنواتي مرت، وحياتهم مستقرة مرفهة هناك، وحياتي شقاء وجفاف هنا. هات هات هات.. اختصرت السلامات في حواراتنا على الإنترنت كثيرا.. يقولون: لم تعد الحياة تحتمل تلك الواجهات الرومانسية!.. وطفح الحوار بعقلانية عملية كريهة، مختصرها قائمة طلبات جديدة.

لكنني أعوض ذلك الآن.. نعم.. وإنه حقي أن أفعل.

لم أخبرهم، ولن أخبرهم. إنه حلم الكبيرين من أبنائي، والذي لن يحققاه. أنا فقط من حقي تحويل الحلم لحقيقة. هما عالة، تعودا أن يطلبا وأجيب.. وتعودت هي أن تلح لأجلهما، حتى تحصل على موافقتي. الرغبة الوحيدة لهما، التي ألحت –وبشدة– كي أرفضها، هي تلك التي سأحققها أنا لنفسي.. هذه المرة لنفسي، وليست لأي أحدٍ سواي.

لن أغامر بإخبارهم.. هي ستحبطني بعدم اهتمامها، مع التشديد عليّ بألا يعرف أحد من فلذات كبدها، فيتجرأ ويتملص من حضنها منبهرا بحلمه.. وهم – إن عرفوا– سيملئون رأسي صداعا، ومحاولات لاستغلالي واللحاق بي. سأصمت عن الخبر، فلست أنوي الاستمرار في مهجري بأكثر من وقت

حصولي على الشهادة، التي ستضاعف راتبي حين أعود.. وهم لن يدركوا مكاني، ففي كل الأحوال حوارنا على الإنترنت، فقد نسينا الهواتف منذ سنوات، وإن كلمتهم فمن برامج الحاسوب أيضا، فلا يظهر رقم يشي بي.

أخيرًا سأكون نفسي.. لقد منحتني كلي – وبرغبتي– لهم سنوات وسنوات، ولم يعد لدي ما هو أكثر لأمنحه، ما لم أتزود من منابع الأخذ لحين. يتشدقون بكلام يتردد على ألسنة صانعي الكلام، عن الغربة داخل الوطن والقهر وأشياء لا يفهمونها؛ أنا أفهمها وعشتها واقعا طوال سنوات اسوداد الشعر وبياض القلب، حتى انقلت الحال وابيض الشعر، قبل الأوان، واسودَّت ذكريات القلب بعمق السنين.

أرسلت لي الدنيا تلك الفليبينية الريا، التي شجعتني على هذه الخطوة، وخطبتني من نفسي لأكون معها زوجا وونيسا، وأبدت استعدادها لاعتناق ديني أيضا، إن أردت.. أتفاءل بها.. تدفعني لتحقيق نفسي.. ولتحقيق متعتي.. ولتذوّق الحياة عسلا بعد صبر.

(٣)

أكواب الشاي ترتفع وتنخفض، وتنتهي ويُصَبُّ غيرها، وترتشف بصوتٍ عالٍ – مقزز من وجهة نظر البعض – والحكايات لا تنتهي عن هذه وتلك وذاك من الجيران والمعارف، وكلهم أبناء القاذورات على ما يبدو، كأن لم يعد جيد في الدنيا سوى الجالسين هنا، يستبيحون سيَر البشر جميعهم، مضيفين بعض الخميرة لتنتفش الحكايات أكثر ويحلو مذاقها.

لا يهم إن كنت أحب حديثهم أو لا، فالأهم أني لا أريد حديث غيرهم، وأكتفي من الناس بترولي لقضاء حاجات البيت؛ بل ربما كراهتي لما يقولون تؤازر موقفي، على مبدأ: إن كان هؤلاء أهلي، فما بالي بالغرباء، رغم إني أعلم أن ذلك ليس الحقيقة.

تلتفت الكبيرة إليّ فجأة، وكأنما تذكَّرت شيئًا لم تكن تذكره، ولاحظها الجمع، فبتروا الكلمات..

– جوزك بعت الشهرية؟

أضطرب، ولا أدري كيف أقول ما حدث. ألملم ساقي تحت فخذي، وأحك ذراعي، وأتلجلج..

– لا مانا نسيت أقول لك يا ماما صحيح.. ده اضطر

يسافر سفرية كده خدت الفلوس وهتطوّل معاه يمكن سنة وللا اتنين.

أستدرِك، وأنا أحاول أن أتخير الكلمات، فأنا لا أثق أن ما أقوله محفوظًا هنا، وقد يصل من أحدهم إلى أشرف أو أسماء، أو حتى نصر، وهو كفيل إن علم أن يرسل الخبر إلى بر مصر كافةً.

– بس إن شاء الله هي زنقة مؤقتة وبعدها بقى مرتبه هيزيد كتير قوي.

تضيق عينا أخي، ويسألني:

– هو سافر فين؟

أزفر في استياء.. إنه يسأل سؤالا مباشرا من الصعب معه ألا أجيب. مقيتٌ فضوله منذ وعيت عليه.

– مش عارفه يا جابر ما سألتوش أهو قال هيبعت لي أما يروح ولسه ما بعتش. اهي حته هيسعى فيها عشان يترقى وخلاص.

أنا لست جاهلة إلى الدرجة التي تجعلني أجيب تلك الإجابة السمجة؛ ولكن لأن جابر يستعذب اعتباري ربة منزل لا تدري عن أمر الحياة شيئًا، فقد قبل إجابتي دون اقتناع.

تقاطع الكبيرة هذا الحوار الجانبي، فهو لا يعنيها كثيرا. ترتكز بكفيها على ركبتيها، وتغير نبرة صوتها إلى الحزم، الذي لا ينفك يرعبني كما أيام الضفيرتين، وكأنما الشيب في رأسي، وأبنائي

الذين طاولوا أخوالهم، لم يشفعوا لي كي أثب عن تلك الدرجة في أسفل السلم، الذي توزعنا هي عليه، وتعتلي قمته.

– طيب اعملي حسابك شهرية الشاي مالهاش دعوة بالكلام ده. أنا اللي جاي على قد اللي رايح وأنت جوزك مسئول عن مزاجك مش أنا.

أجدها فرصة لأتصنع الغضب، وأقوم لأنصرف، متجنبة مزيدًا من الأسئلة عن نعيم، وأسارع إلى الباب قائلة:

– متشكرة قوي يا ستي يعني لو يوم ممعاييش حق الشاي اللي هاشربه بلاش أقعد معاكم.

وصفقت الباب بسرعة، قبل أن يسارع أحدهم بالرد. فردت كتفيّ وأخذت نفسًا عميقا، وقفشت نفسي أزفر في راحة الخلاص.

(٤)

ذلك البرد لم أجربه من قبل.. أرتجف رغم ظني أنني قد احطت وتخيرت أثقل ملابس ممكنة. أفتقد شمس بلادنا، وكأنني طفل تاه يرغب في البكاء. المشي في الشوارع هنا ليس مخيفا كما كنا نسمع، بل لقد مشينا نستكشف ونستمتع حتى لم ننتبه إلا وقد ابتعدنا كثيرًا جدًا عن البيت. أتلفت باحثا عن "تاكسي" فتلتقي عيني بعينيها المرحة – كنت قد نسيتها– تتقافز في خطواتها فرحة متفائلة. هي – مثلي – ليست واردة جديدة على الغربة؛ وإن كانت الغربة في بلاد العرب أقل صدمة بالنسبة لي، فالوضع معكوس عندها.

استلقيت في التاكسي، وألقيت عينيّ خارج زجاجه المغلق، وقد سمح الدفء لخواطري أن تتساقط كندف الثلج في الخارج. قبل أن أقرر السفر والمكان، أرسلت لأم العيال أسألها: "ايه رأيك تيجي معايا وأسافر أي حتة محترمة أحضر دكتوراه وعمة العيال تقعد معاهم؟" وردت فقط بضحكة، لا تعني شيئا على الإطلاق.

ابتسمت، والتفت إلى نيلي.. المصالح هي أساس كل العلاقات. نحن معا لأن طريقي ييسر طريقها وأملها، ويوفر عليها مشوار الادخار، الذي مشت قرابة نصفه بصعوبة للانتقال للقارة

الأمريكية المبهرة. أم أشرف لا ترى مصلحة لها سوى أن تقر عينها بالعيال، وأن تجد مني المال، وأن تشرب الشاي عصرا مع أخواتها، الذين تجمعهم تلك العمارة، لتكون الكارثة على رؤوس أزواجهن وزوجاتهن.. الوضع بيننا يناسبها جدا.

أنا الآن أيضا أصبح الوضع يناسبني..

تقطع أفكاري غصة في حلقي. يلكزني ضميري بمعلومة أصر على إبعادها، فمنذ سنوات لم تكن هكذا، وكثيرا ما نادتني بالسندباد، ورجتني العودة. أشد على يد نيلي لاجئا لها، وأصر في عقلي أنني لم أخطئ.. كنت أحتاج السفر، لأنفصل عن العصابة العائلية التي تحوطني، وأحتاج رأس مال أعمل به، وأحتاج أشياءً وأشياء، وعلاج أمي أخرني سنوات، حتى قضى الله أمره.

هي لم تصبر معي، وتوقفت عن ندائي، وتجاهلتني، وملأت أفقها تماما دون مكان لي فيه. نجماها، أشرف وأسماء، الطبيب وطبيبة الأسنان.. قمرها نصر، وثانويته العامة المقبلة، التي تحطم أعصابها.. وسماؤها جلسة الشاي، تتصدرها حماتي العزيزة – شيخ المنصر– التي يستبدلون لقب الأمومة لها بالكبيرة.

(٥)

"زمااااان كنت صغير قوي.. وكانت طلباتي كتير.. عادي يعني طفل وكل ما حاجة تزغللني أطلبها من ابويا.. ما هو بابا بقى ويقدر يجيب لي كل حاجة.. أو على الأقل كان في نظري كده.

كبرت طلباتي وكترت.. ابتدا يقول لي إن شاء الله فاتضايق وانتظر.. ومع الوقت استوعبت أن إن شاء الله معناها إنه مش هيحصل.."

يظن أبي الآن أنه يخفي سره العظيم.. يظن أنه يمكن أن يخفي سعيه لنفسه، وانتقاله دون إخبارنا لتلك البلد.. مشكلة تلك الأجيال القديمة هي الاستهانة بمن يتلوهم عمرا، وينسون أن الطفل الصغير الآن يستطيع أن يفعل الأفاعيل بجهاز الإم بي فور أو الكمبيوتر أو الموبيل مما لا يستطيع القدامى استكشافه ويتكاسلون عن فهمه. إنه الآي بي يا والدي الذكي، يكشف مكانك منذ سافرته.

"إن شاء الله".. إن ما يفعله هو تكرار جديد لتلك العبارة، تضخم هذه المرة بحجم المتناطحين. لكنه نسى هذه المرة أنني لست الطفل قليل الحيلة، الذي تعوّد منه الاستكانة والاستسلام لمظلته الإجبارية.

يغيظه كثيرا أن نطلب منه شيئا.. نحن ظالمون، متجنون، أنانيون إذا نطلب.. يعيش دور الضحية، الذي حولناه لمصرف يمولنا فقط. أضحك حين أسمع صوته معترضا مبحوحا وهو يصرخ في أمي بتلك الكلمات. أغتاظ من كتمها الحقيقة.. لماذا لا تسأله: فماذا كان لنا غير ذلك طوال تلك السنوات؟ ما الذي أعطاه غير المال؟.. نغمة التضحية والغربة إلى آخره هي فقط تطويل في شرح معطى واحد وهو المال، والمال فقط.

كلمة واحدة لا يستطيع أن يقولها في تضحياته، ويتوقف لسانه قبل أن ينطقها، وربما هي التي تحفظ لأمي يدا عليا، تخفض من سقف جبروته عليها.. الوحدة!.. ليس هو من عانى الوحدة، وها هو قد جلب الأنيس لنفسه، وشاركها مشروع حياته الجديد، الذي لا أعرف ما هو، ودون أن يشركنا معه بمعلومة عن قرار كبير في حياته كهذا.

لا يهمني أنه تزوج، ولم يفاجئني ذلك حين أخبرني، بل ولا أدري سبب ذكره للأمر لي، رغم إنه قال إن أمي لا تعرف، ولا أفهم أيضًا هل يريد لها أن تعرف، ويسرب الخبر عن طريقي، أم يختصني به.. أحيانا أعتقد أنه يراني غريما له، يحلو له إغاظته بشكل ما!.. وعلى أية حال، فأنا لن أخبر أمي، فما بينهما كله لا يخصني، وهي إن عرفت فلن تتخذ أي موقف إيجابي، ولن تثور أبدًا..

ما يعنيني أو يغيظني، ليس زواجه، ولكنه سفره. لا أجد مبررًا يدعوه للانتقال، والتضحية براتبه إلا فرصة أفضل بالتأكيد.. ربما الجنسية، أو ربما الدراسة، وربما الاثنين. في معتقدي الخاص – والذي أتمسك به، بلا خاطر لبر الوالدين– أنه سرق حلمنا لنفسه. أخذ فكرتنا أنا وأسماء، ليعيشها هو في سنه هذا، ناسيا أن لا زواج، ولا دراسة، ولا هجرة ستعيد له أيامه، أو تجدد له شبابه، وأن هذه الأيام هي حقنا نحن لا هو، وهو يعرف ذلك، وإلا لما أخفاه عنا.

(٦)

كنت قد بدأت أشعر بالاختناق، فرغم أي شيء تعودت أني آخذ في آخر كل شهر، لا أن أدفع وأدفع وأدفع. رفيقتي العزيزة تؤازرني، وتضغط مصروفاتنا لأقصى درجة؛ لكن على ما يبدو أن الحياة مملة، أو أنني مللت نفسي. لكن أدركتني الحياة أخيرًا بانفراج طيب، فبدأت أساعد زملائي بالدراسة في أعمالهم، مقابل منحٍ غير ثابتة – بالقطعة – هذا أفضل من لا شيء. لم أكن مغرورا ولا واهما حين كنت أشعر أني أجيد عملي، بما لا يستدعي تلك الدراسة والشهادة؛ ولكن تظل هي الأحق – في نظر من بيده الأمر – في تقييمي وترقيتي.

شيئا فشيئا بدأ سوقي ينجح، حتى إنني انشغلت عن الدراسة إلى حدٍ ما، وشجعتني ابتسامة نيلي ورضاها، ألاّ أتعجل إنهاء الدراسة، فقد بدأنا سويا نحقق دخلاً جيدًا.

أم أشرف لا زالت تلح بطلبات العيال. وبدأت أتذمر، وأقول لها إن من تخرّج وعمل ليس له عندي إلا مأواه وغذاؤه، وليس أقل من أن يكون دخله كافيا مصروف يده. فاجأتني.. "أشرف بيحوش عشان يخطب، وأسما بتعمل جمعيات وبتجهز نفسها".

"جواز!" العيال كبروا إلى درجة التفكير في الزواج!.. أنظر

إلى نيلي.. أسألها دون صوتٍ – وهي ابنة الثلاثين – إن كانت تتخيل أني ربما أصبح جدًا بعد سنواتٍ قليلة.. أعود وأستنكر الفكرة.. الأمر ليس للزواج، أنا واثق أنهم لا يفكران به، لا أشرف ولا أسماء؛ وإنما ربما يلوي أشرف ذراعي، بعد أن أخبرته بزواجي..آسف، لن يبتزني، ولن أمنح أكثر لمن يفعلون هذا بي، وإن أراد أن يخبر أمه، فليفعل..

– اللي عايز يتجوز يتجوز أنا مش ملزم به أما يبقى يكوِّن نفسه يبقى يتجوز. وعلى فكرة كمان مافيش نزول للمة العصابة بتاعة أمك ومانيش دافع الإتاوة بتاعتها تاني أنا هنا ورايا مصاريف دراسة علشان مستقبلي مانيش بألعب ولا بأهزر.

أغلقت الحاسوب دون أن أنتظر ردها. انتقلت إلى جوار نيلي، وأسندت رأسي إلى صدرها، وأنا أشعر بغليان التمرد داخلي، وأحاول أن أخمد شيطاني، بلا فائدة.

(٧)

مللتهم جميعا.. أمي، المحاصرة بجدتي الكريهة وأخواتها.. أبي، الذي لا أعرفه بأكثر مما أعرف رئيس وزراء بريطانيا.. وأخويّ الكبيرين، اللذين لا يفكران في غير تحقيق كل ما يطمحان إليه، بلا احتمال ضئيل لألاّ يكون مقدرًا لهما.

هما ناجحان، تضرب العائلة المصونة بهما المثل.. كلاهما يحمل لقب "دكتور" الساحر، مدعاة الفخر. وتريد أمي أن أكون مثلهما.

أنا أنجذب لحياة الـ (صنايعي).. أمي تصر أن تفسر ذلك بأنني فقط أريد كلية عملية كالهندسة مثلا، وبديل الميكانيكي هو مهندس الميكانيكا، وبديل النجار هو مهندس الديكور. لا تفهم أن ما يجذبني ليس عمل الصنايعي بل يجذبني اتساخه، واتساخ لسانه ببذئ الألفاظ أيضا.. تجذبني قسوته في تعليم كل (بلية) يقف معه، يناوله، يحضر له الشاي، ثم يبدأ في التقاط مهاراته شيئا فشيئا. يجذبني التفاته لامرأة أنيقة لن ينالها، ولكنها تتودد إليه لحاجتها له فيما لا يمكن أن تفهم فيه، أو ربما لغرابة عالمه عن عالمها.

سحر.. ذلك العالم – بالنسبة لي – سحر.. أتخيلني أنتهي من

ورشتي، فألجأ لقطعة الحشيش – كتري– فتخلو دماغي من كل ما عدا متعتي، وأنطلق مغنيا شعري؛ الذي طالما هزأ به خالي، ورأته أمي مفسدة لوقتي، وتضييع لمذاكرتي.

هي تلك السنة مفترق الطريق.. إما أن تقوى إرادتي، وأستطيع أن أزهد في إجابة ورقة الامتحان، وأحقق ما أريد.. أو أتخاذل أمام فرصتي، ويضيع ذلك الحلم الفريد مني، وأصبح ظلا جديدا لرغباتهم.

يقطع أفكاري صفير أعرفه من الأسفل، فأفتح الشباك، وأشير إلى رفاقي، الذين لا يرضى أحد هنا عن رفقتهم، وأغير ثيابي، دون أن أغلق الشباك، ضاحكا لصياح نسائي يصل مسامعي عن قلة الحياء وأمور كتلك.

(٨)

الأيام تمر، وأزهد كثيرا في الدراسة. لا يدفعني للتكملة إلا غيرتي منها وهي تدرس بحماس، يفوق حتى حماسها لي، كأن دراستها هي حياتها القادمة، وما أنا إلا مرحلة ساعدتها. اعتدت أن أقاوم مثل تلك الهواجس، وأن أحاول حبها أكثر.. لا أريد أن أفشل، فكفى بأم أشرف فشلا ذريعا لا أطيقه، فلا أنا أخذت منها رفقة ولا جسدا ولا شيئا سوى مسئولية وإنفاق لا ينتهي، وبلا مقابل منها أو من عيالها الثلاثة.. لكن نيلي رفيقة جيدة بلا شك في حياتي الحالية، ولذا فعليّ أن أطرد وسواسي هذا، ما دمت أصلا لست العاشق الأمين لها، كي ألومها أن لم تكن مثلي.

الكتاب ثقيل في هذا السن.. أثقل من عبء الفراش مع أنثى تصغرني بعشرين عامًا. أحيانا أرفع رأسي عما أقرأ –أذاكر– وأنظر إليها، جالسة تذاكر في نهم. دوما تنتبه لي، فترفع عينيها، وتبتسم مشجعة، ثم تعود إلى كتابها. أقرر أحيانا مقاطعتها – ربما غيرة–، فأطوي الكتاب، وأضعه بجانبي، وأقوم إليها، لأنهش كتفها المكشوف، في مداعبة عنيفة، فتضحك، وترمي كتابها، وتقوم لتأخذني بين ذراعيها. إنها لا ترفض الفراش أبدًا.. ولا تبخل بمتعته عليّ أبدا.. تعطي وتأخذ.. ولا ترتضي النهاية إلا وقد أثبتت أنها فارسة تهزم مضمارها، وتجهد حصانها. أحيانا

أعتقد أنها تتعبد إلى آلهة الجنس دون غيرها من الأديان.

يحبطني أن تسهر بعد ذلك مضيئة مصباح المكتب، لتكمل مذاكرتها، وقد أطفأت إضاءة الحجرة لتدعني للنوم. لكن أنى ليّ الاعتراض وقد لبت وزادت.. يالحيويتها الخالصة!

للحق، فالحياة هنا منظمة، وللمتعة نصيب دائما. الجو هذه الأيام بدأ يعتدل، ونيليارتدت ملابس الصيف، التي كان ينبغي أن تثير غيرتي، لكنها لم تفعل؛ بل ربما أثارت بي نوعا من التيه. العمل كذلك مستقر، ودخله يزداد، ويعرفني زبون من زبون، حتى لقد قاربت ما كنت آخذ راتبا في بلاد العرب. وعن الدراسة، فرغم تباطوئي، تسير على ما يرام.

ومع ذلك كله، شيء ما يحيك في صدري.. شيء أريده ليريحني، ولا أناله، ولا أعرف ما هو.. وبداخلي أيضا عزوف عن البحث عنه.

(٩)

– يا بنتي ما تطلبي من أبوكِ

أضحك.. أقول لها، رغم ثقتي أني سأستفزها..

– نعيم!.. يعني مش كتر خير الراجل صرف على عيال ما يعرفهمش لحد ما بقوا كل شحط وشحط قد الباب. مش هاطلب منه حاجة.. هو كتر خيره لحد كده عمل اللي عليه.

وكما توقعت، تسبني به، وتنصرف، داعية على (اللي كان السبب) والذي لا أدري إلى الآن من هو، أو فيم تسبب!

أراها تمر بباب الغرفة، تحمل طبق الغسيل،وتتجه للشرفة، وهي تهز رأسها، وتحادث نفسها.. كم أشفق على هذه المرأة.. أضاعت عمرها في لا شيء، ولم يكن لها تسلية إلا في جلسات الشاي عند جدتي، والتي حرمها أبي منها مؤخرا. لا يعجبني استسلامها لذلك، فكيف يصدِّر القرارات من بلاد أخرى، لتكون واجبة التنفيذ هنا؟.. ثم إنها لو لم تطعه، فلن يدري شيئا عن ذلك، فما المشكلة؟!

أنا أيضا لا أطيعه.. ولا أطيعها.. لن أفقد حياتي طاعة لأغبياء، هم –للأسف– أهلي.

هانت.. سنة واحدة أخرى، أو ربما بضع شهور أكثر،

وأنتهي من الماجستير، وأسافر إلى أي بلد خليجي. أسير على نهجه نعم، وأريد المال مثله.. من منا لا يريد المال؟! وإن وُجِد، فهو أحمق لا أكثر. لكنني لست مثله، فقراري من البداية واضح أن أكون لنفسي، ولن أضحك على غيري، وأشركه في حياتي دون داعٍ.

حتى ضياء، لن يمكنني أن أصبر معه حتى يثبت نفسه، ويحقق ذاته، وينصر وطنه، إلى آخر تلك الكلمات الخرقاء، التي –للعجب– يرددها عن قناعة!.. فقط لا أنكر أبدا أن قبلته تثيرني.

(١٠)

أغلق الباب جيدا.. يعرفون أني آخر اليوم لا أطيق وجوههم، وأختلي بنفسي، ربما لأحدث أباهم، أو أبكي مع نفسي (أتفك شوية) أو أهاتف إحدى صاحباتي. الأهم -وهو ما لا يعرفون- أن أفتح درجي، وأرفع تلك النثائر، لآخذ ذلك الشريط، وأبتلع منه قرصا.. قرصين.. منذ شهرين قد أصبحوا ثلاثة أقراص.

أنظر إلى المتبقي، وأشعر بهم شديد، فإن لم يرسل نعيم مصروف الشهر في موعده، فكيف أسدد ما عليّ لدكتور إدريس، وكيف يرضى أن يعطني مجددًا؟.. هل من المعقول أن أقتنع، بعد أكثر من سنة هناك، أنه لم يستقر في عمل؟.. لا أصدق، فرغم غربته عني، إلا أنه لن يعرفه أحد مثلي أبدا.

ساذج نعيم.. أعرف عنه كل ما هو فيه، وعن أمر نيلي عشيقته الفلبينية، التي يضحك على نفسه، ويسميها زوجته، وأخبر عنها النذل أشرف.. أعرف عن دراسته، التي قطع فيها شوطا جيدا، وعن عمله الخاص، الذي يعيش به في كندا. بل وأعرف أيضا عن ذلك المتجر، الذي يفكر في شرائه هناك، نافيا تماما أي احتمال لعودته. نسي من زمن بعيد أن كلمة مرور بريده الإلكتروني أنا من وضعتها له، فقرأت محادثاته مع أشرف، ومراسلاته للدراسة، قبل أن يسافر، ورأيت ما يخص عمله، ومشروعه.

أتلصص نعم..

أضحك، وقد بدأت أقراص الدواء مفعولها على ما يبدو.. ماذا إذا تلصصت عليه؟.. إنها الطريقة الوحيدة، التي أعرف بها أخباره ومساره. يئز في صدري صوت في بعض الأحيان، أخرسه فورًا، فليس ذلك دون كل ما نعيش فيه الحرام والتعدي. من حقي أن أبحث عن أملٍ في حياتي معه..

"مش هيرجع ياختي.. كان رجع من الأولانية اما يرجع من دي؟!"

هكذا تحدثني مرآتي.. أنظر لشريط الدواء.. بتحدٍ وعصبية أضغط وأخرج قرصا رابعًا..

" مش خسارة فيّ وللا هي الفلبينية اللي تكوِّش على خيره بس"..

ثلاثة يكفونني أعلم؛ لكنني الليلة أحتاج لأكثر من مجرد الهروب.. رأسي متعب كثيرًا، وتتكرر في رأسي صورة تلك السيدة، بائعة العلكة، وهي تنادي، كلما مر رجل بجوارها: "معانا اللبان.. واللـــ مابانش"!

لا أدري لماذا آذتني هكذا، ولا لماذا لا تبرح رأسي كل هذه الساعات.. أبتلع القرص بلا ماء، وأتمنى أن تهبني ما هو أكثر من الهدنة والهروب.. أحتاج للسعادة.. لماذا أكون الوحيدة التي لا تستحقها؟

(١١)

إنها أنا مرة أخرى.. أستبق دور غيري هنا؛ لكنه ابني، ذلك الكريه.. ليس لأحد أن يعجب، فأنا لا أقولها أمام أحدٍ، طبقا لما يجب أن تمليه روابط الأمومة الواجبة..

أصفي التين جيدا، وأنقله إلى طبق، وأضعه في الثلاجة، ولا زلت أسمعهم في الصالة، ولا أنظر ناحيتهم، آملة أن ينتهي الأمر دون تدخلي.

أنا لا أكره كوني أمًا، ولا أكره أبنائي.. لست تلك المعقدة ذات القلب المريض. لكنني صريحة – على الأقل مع نفسي – للقول بأن ذلك الفتى كريه، لا يصلح للتعامل المحترم الكريم.. لولا أن وهن عظمي، لوقفت له.. ولكنه رجل عفيّ، ولست إلا امرأة تجادل الأربعينات بعنف كي تتعلق بأذيال الشباب.

ألتقط وعاء آخر، وأضع به بعض الزيت، وأشعل النار.. أضحك بلا صوت، مفكرة أن بإمكان غليانهم بالخارج سلق اللحم، دون نار.

ليست المشكلة مع نصر عندي، لكنه أخوه الأكبر، الذي لا يقل عفونة عنه، وإن اختلف الشكل.. دائما يريد أشرف لنفسه صفحة بيضاء كمعطفه، ولذا فكلما رأى أخاه يقف مع "منوفي"

الميكانيكي، جره من قفاه، وحط من قدر رفقائه، ثم صعد به إليّ، ليشنف أذني بخطبته العصماء عن المفروض والصح والواجب.

أفرغ قطع اللحم في الزيت، فيطرطش، وتقفز قطرات منه، تسلع عيني اليسرى، فأغمضها، وأقف أقلب اللحم والبصل بعينٍ واحدة مفتوحة.

أختهما لا تتدخل للتهدئة - بالطبع - بئس الابنة هي الأخرى.. يصلني صوتها، تتطوع بتعليق بارد، كافٍ لتحويل اللهب حريقا. أعرف نصر يسكت ويسكت، لكنه في النهاية يهب فينا جميعا، بعاصفة من البذاءات لا يسعهما ردها.. يستفزانه، ثم يلومان تربيتي.. إنهم لا يجتمعون إلا لمشاحنة.. أكرههم جميعهم.

ويلي.. أكره أمي، أخوتي، أبنائي.. أكره أباهم أكثر منهم جميعا.. هو من فعل ذلك بنا كلنا.. إما بعيد، أو يأتي فلا نرى منه غير البحث عن المثالية الوهمية، التي لا يملك هو منها إلا واجهة أنيقة، ولا يرى فينا سوى أوجه معيبة. ليته يختفي!

يبدو أنني بدأت إدراك أنني تلك المعقدة حقا،لم يَفُت قلبي المرض كما كنت أظنني قبلاً!

أشعر بأنفاسي تنقطع، وهم لا يكلون، أملأ الـــكنكة بالماء، وأفرغها في الإناء، فيتصاعد البخار ساخنا، بصوت قوي.. أصرخ ناهرة الصغير، ليوقف سيل القاذورات المنحدر من

لسانه..

- نصر!

تنسحب (الدكتورة) إلى حاسوبها.. و(الدكتور) - غاضبا - إلى حجرته، صافقا بابها في وجه الجميع.. ويخرج الضائع الأصغر إلى الشرفة، يعتذر لمنوفي بصوت عالٍ، مستفزًا أخواه.. وأظل أنا أقلب الحساء بالمغرفة الطويلة، والبخار يحرق عيني، ويخفي سببا حقيقيا لاحتقانها..

(١٢)

خائبة.. نعم أنت خائبة يا أمي. ليس خطأ أو زلة لسان، وإنما إقرار حقيقة لن أقولها في وجهك. كل ما حدث اليوم يؤكد هذه الحقيقة، وأشرف واقف في بأس، يطلب ما ليس من حقه، ونصر يستعرض قدرات لسانه الفذة على الانحطاط.

رأيتك تبكين أمام ماعونك، وتظنين أن لا أحد يراك أو يشعر بك. في الحقيقة لا أشاركك مأساتك، فليست إلا اختيارك، وأنتِ وحدك من عليك تحمل نتائجه.

لكن ما لا أفهمه مشكلتكم مع نصر!.. أراه – من وجهة نظري – الوحيد فينا، الذي يختار طريقه بقناعة وقوة.. لديه قدرة على التحدي، وإعلان إرادته أمام الكل.. بل إن تكرار وقوفه مع منوفي ذاك هو إدخال لقراره إلى حيز التنفيذ..

منوفي!.. به شيء جذَّاب هذا الميكانيكي القذر.. لا أدري، لكنه يغريني.. ماذا لو جمعنا فراش؟.. احم..

كنت أقول إن ما عليكِ أيتها الأم إلا أن تدعيه لقراره، فلا أبوه سيعود، ولا أحدنا سينفعه. لماذا لا تقولي لأشرف صراحة إن ذلك ليس منه حقه؟.. لماذ لا تفعلين إلا إذابة عقلك كالملح في ذلك الحساء؟.. دعيني أقول لك إننا جميعا أصبحنا نثق في كون منفعتك لنا لا تتعدى وجبات على تلك المنضدة، تجمعيننا حولها،

ثم تتركيننا معا، بعد سماع كلمة " تسلم ايدك"، وتنفردين بنفسك في غرفتك لا تشاركينا حتى طعامنا.. هل تظنين بعد ذلك أن ستسيطرين على أحدنا؟

"بأمارة أيه؟"

– هو ايه؟

أفزع.. كانت هي عند باب الغرفة.. تخبرني إن الطعام جاهز..!

(١٣)

هل لي أن أكتب هنا أنا الأخرى؟..

أنا لم أخطئ في حق أحدهم، فنعيم غائب عنهم بأي حال.. سفرنا ساهمت فيه بعدلٍ كبير، ويكفي خدمتي له، خاصة في الفراش. فيم أخطأنا؟.. مَن حقي أن أبحث عن مستقبلي، ومن حقه تطوير نفسه، فماذا يريدون؟!

تلك البيئة المريضة، التي يتمرغ فيها العرب، تزرع مَلَكة التطفل في الأبناء، بل ربما الترمم، حتى يظنون أن آباءهم عبيد مسخرون لهم، وإن نبتت شواربهم، وأنهوا دراستهم، بل وعملوا وأصبحت لهم رواتبهم!.. أليس ذلك قميئا؟!

أنا لا أتعاطف مع تلك الأسرة هناك.. ربما زوجته قليلا، لكن ليس أحدًا من أبنائه على الإطلاق.. هو لا يكاد يذكرهم لي، ولا أعرف عنهم إلا نذرًا يسيرًا تحمله شكواه منهم، لكنني أحيانا أفزع على حلمٍ بشع، يجزُّون رقبتي فيه. أولئك العرب لا أستبعد عنهم شيئا، وخاصة إن ملكوا القوة.. خبرت عشرتهم لسنوات، فلست مدعيّة، أو متجنية.

ربما ليس المجال أن أحكي تجربة سنوات فاتت وانقضت، وانتهت أخيرا بقدومي هنا، إلى عتبة الحلم الكبير؛ لكن من

جرّب العمل الخاص لديهم، سيفهم ما أعني جيدا.. خاصة إن كانت امرأة..

الحياة هنا تناسبني جدا.. الحريات موازية لتلك في موطني الأصلي، ولكن الحقوق أفضل هنا بالتأكيد.. أنا أعشق العدل في العطاء، والوفاء بالعهد، لذا فأنا على عهدي معه، ولا أصاحب غيره أبدًا.. لكنني على الأقل أستمتع بامتلاكي حريتي.

ها هو كعادته.. يغضب كلما تحدث إليهم عبر الحاسوب.. هذا لا يضايقني كثيرًا، بالعكس يلجئه لي، ويفرغ شحنة غضبه في إتياني بقوة أعشقها، كأنه يضربني بكل الطاقة المكبوتة لديه.. رغم سنه، لا زال بعافيته إلى حدٍ كبير.

أحيانا أخشى أن أفقده.. ليس حبا.. لكنه رفيق السفر والغربة، فلا زلت غريبة هنا. لا أستحي من الاعتراف بأني لا أحب زوجي.. ليس الحب في عهدنا معا، وأعرف أنه أيضا لا يحبني؛ وإن كان يبحث عندي عن الحب. مسألة الزواج تلك أراها مضحكة، فمشروعنا لا يقال له زواجًا، بل هو رفقة جيدة، إن أردنا عدم المواربة. ولكنها شكليات ترضيه، فلا بأس بذلك.

عمره المقترب من الخمسين، وعصبيته المتواصلة، وتلك المهدئات التي بدأ يستزيد منها، كل ذلك يخيفني.. أفكر في سؤال أحد المحامين هنا عن إرثه إن حدث ما أخافه. لم نتكلم معا في

ذلك من قبل، ولن أدع فرصة لمثل ذلك الحوار، فينتبه إليه، ويفاجئني بقسمة ملّتِه – الإسلام– ، التي لن تعطيني إلا أن أشارك زوجته في ثُمن ما لديه. أي نصيب حقير ذاك؟!.. لابد أن أسأل وأحفظ حقي، وإلا ضعت، فلا زال أمامي وقت للدراسة، وربما أكثر منه للحصول على الجنسية – كما أتمنى.

أنا إنسانة طيبة، لا أشك في ذلك.. لكن الحقوق والأمان شيء منفصل عن إنسانية النفس.

(١٤)

ليس أمامي للخلاص من كل ذلك سوى أن تنسى أمي تمسكها بذهبها.. لم يعد أحد يتمسك بالذهب، ولم تعد الطبقة الراقية (التي تحاول الانتساب لها) تعتبره من الأناقة في شيء. تقول عن تلك القطعة إنها إرثا عن جدتها، وتلك عن أمها، وأخرى عن عمتها.. ما المشكلة في كل ذلك، فمعنى ما تقول إن كل ذلك ملك لها الآن.. ملك لها، وأنا أحتاجه، لننتهي من ذلك الموّال الذي طال، ومللناه جميعا..

"دي كلها فصوص مش بتتوزن في البيع ومش هتجيب فَشْرَه"

"ياستي الياقوت بقى زي الألماس دلوقت بيتباع بالقيراط.. اديني الغويشة الياقوت بس ومش عايز منك حاجة تاني"

"انت اهبلت؟!.. دي شبكتي وكانت بتاعة جدتك لابوك.. ده انت ماعندكش دم!"

انتهى الحوار من جانبها عند ذلك؛ وأبت فتحه مجددا. لكنني لن أقف عند خط وقوفها.. هي تعيش مع ماضٍ، لا أدري لِمَ تعيش فيه!.. أي ذكرى تتمسك بها في "شبكة" من رجل يكاد يكون أغرب الناس عنها؟!.. تلكن النساء القديمات مملات في تفكيرهن العقيم.

أسماء، الغبية، تتبرع بالقول إنني لا حق لي في ذهب أمي، فالذهب للبنت. أمي تلتفت إليها، وتقف مكانها.. يحمر وجهها، ثم تعطينا ظهرها، وتصفق باب غرفتها بشدة، جعلت تلك الثريا تهتز، وتقع منها قطعة بللور، تتحطم على بلاط الأرض، فنسمع صراخ أمنا من وراء بابها:

"منكم لله"!

تقلب أسماء شفتيها متذمرة.. وتتابع حاسوبها.. ويغلي دماغي، يبحث عن مدخل جديد لنفس الحديث مع تلك المرأة العنيدة.

(١٥)

أسمع صراخهما معا.. أفهم صراخ نيلي وقلقها، وأعرف أنها سألت محاميا عن حقوقها، ولكنها لا تعلم أن لا مال لي هنا إلا القليل. تظل أم أشرف هي الأمينة على خزانتي، وأثق في عدم اجترائها على خيانة الأمانة.. ليست شخصيتها التي تفعل ذلك. يختلط صراخهما دائما، ولا أفهم تماما صراخ أسماء!

أنحدر في تلك الغيبوبة مرات ومرات، وأنا أسمع صوتيهما، وأبتسم مطمئنا. لا أشعر أنني سأموت.. يقولون إن المرء يشعر بموته قبل أيام من زيارة عزرائيل الفريدة له، ولذا فأنا أضحك من صرخاتهما في كل مرة.

المشكلة أنني مللت الغيبوبة، والمستشفى، والحياة كشيخ فارق الكهولة، وأقعدته صحته المتهالكة. لا زال عمري – طبقا لشهادة الميلاد وبطاقة الهوية – يسمح لي بحياة نشطة فاعلة. أهي تلك المهدئات التي أتتني بها نيلي ما فعلت بي ذلك؟.. أعرف أن الممرضات كثيرا ما يفتين بنصف جهل، وقد تكون فعلت دون قصد. هي وفية، لا أشك بها، ولكن ربما نيتها الحسنة ما أوقعتنا في هذا الموقف السخيف.. مصاريف كثيرة، توقف عن العمل.. قلق هناك، أكبر بكثير من مجرد القلق على صحتي وعمري..

صمت تلك المرأة، كلما حادثتها يقلقني.

بالطبع اضطررت لمهاتفتها، وربما تكون لاحظت من الرقم أني في كندا.. وكعادتها،لم تبد اعتراضًا.. أغاظني ذلك بالطبع، وبصقت احتقارا لتلك العلاقة بيننا، والتي – من العجيب – أن تسمى زواجًا!.. عمومًا، هي لا تزاحمني حياتي، وتقوم بوظيفتها، التي تعشقها، بنجاح، وقد أزفت نتيجة الثانوية على الأبواب – أو ربما ظهرت ولم تخبرني – وما هي إلا سنوات أخرى قليلة، ويكون الاختيار لنا بوضوح أكثر، فقط حين تتم ذلك الدور الذي أدمنته.

الأطباء هنا صريحون جدا.. جدا بشكل لا إنساني.. يقولون إن طبيعتهم كشعب مؤهلة لذلك، والصراحة تسمح بعملية تناول الأمر وتكييف الحياة.. تلك الصراحة نفسها جعلتني أبصق مرارًا، احتقارًا للطب، الذي يدّعون تطوره، ثم يقف عندي، ليقول: "لا نعرف بالضبط"!

أحيانا أفيق من نوبة غياب – لا أدري إن كانت نوما أم غيبوبة – فأجد ممرضة تغير لي الحفاضة، وتغسل أجزائي الخاصة، ونيليجالسة بالجوار.. ممنوع أن تتدخل نيلي، لا يشفع لي ولا لها أنها زوجتي أو كونها ممرضة أيضا!.. أي مبدأ ذلك.. أبصق على الممرضة، فتقابل غضبتي بابتسامة، كأنني طفل، أو مختل تترفق بعقله.. باردة كبلادها!

أبصق!.. أفعلها كثيرًا مؤخرًا!.. أتذكر أن والدي كان يبصق دائما.. خاصة وهو يسمع الأخبار، أو يقرأ الجريدة.. أمي كانت تكره ذلك، وتشد علينا ألا نقلده.. طوال سنواتي كنت أتقزز من تلك الفعلة، ومن يفعلها؛ حتى أبي.. صورة أمي، ووجهها يمتعض، وينقلب، حتى تكاد تتقيأ تقززا حين يفعلها، جعلتني أكرهه حين يبصق. كيف ومتى تمكنت مني تلك العادة المقيتة؟!..

انقبضت.. مجرد بصقة نجحت في أن تقبضني أكثر من دخولي في الغيبوبة مرات!.. لكن اقتراب أبي مني بهذا الشكل لابد أن يقلقني.. لا أحد يدرك ذلك مثلي!

(١٦)

– ماشي هادخل الجامعة بس مش هابقى دكتور خلاص ما ينفعش ومش داخل جامعة خاصة.. يعني ممكن ابتدي شغل بجد بقى أخيرا وأطلع لساني للدكاترة اللي فوق دول.

تلتفت إليّ ولا تتكلم.. ربما تنتظر أن نصعد لشقتنا، ويساندها ذلكما الكبيران. لكنني لن أسمح لهما.. لن يوقفني أحد عن طريقي. أبي في غيبوبته هناك، و..

– ماحدش له كلمة عليّ في ولادك الاتنين دول على فكرة

تمط شفتيها جانبا، لا أدري أهي ابتسامة، أم امتعاض، أم سخرية. نخطو لمدخل البناية، فتفزعنا (زغرودة) من جارتنا بالأرضي، أم منال، تلك الأرملة، التي تربي ابنتها منال، أم الضفيرة، كما يسميها الشباب، وتعيش لها؛ يعلم الله كيف.

–مبروك يا ام اشرف.. ربنا يطمنك على عيالك دايما ياختي ما شاء الله ما شاء الله.

تلتفت إليّ..

– هتدخل ايه يا نصر، نويت على ايه؟

أبتسم.. كيف عرفت قبل أن نصل البيت.. أهي منال

حقا؟.. أشك، ومعي ثلتي، أنها تتابعني بنظراتها.. أنا وليس دكتور أشرف. تتسع ابتسامتي مع هذا الخاطر، لتقاطعني مجيبة على سؤالي، الذي لم أسأله..

– كنت قايلة لعم العيال يشوف لي نتيجة منال في الكنترول، وقلت له عالمحروس نصر كمان عشان اطمنك.. الموكوس ماجابهاش إلا النهاردة وهي خلاص طلعت في المدارس.. هئ هئ.

ابتسمت أمي.. هي تحب أم منال، ومنال، وتضحك من جارتها دائما حين تقول (العيال)، وليس لديها غير ابنتها. كانت أول ابتسامة لها، منذ نزلنا باكرًا لمعرفة النتيجة.

–يبارك لي فيكِ يا أم منال.. امال منال عملت ايه؟

–ألف حمد وشكر لك يا رب.. إن شاء الله ناوية عالتمريض.

رفعت أمي حاجبيها، بينما رقص قلبي.. "البت دي عملية ومخها نضيف".. لحقتها أم منال – كم أود أن أعرف اسمها.. أظنها أيضا لا تعلم أن لأمي اسم خاص بها، من قبل أن تلد ذلك الـــ (أشرف) –

–ماهي عملوا لها كلية ياختي مش زي زمان وبقوا شبه الدكاترة كده وبيشتغلوا أحسن منهم كمان.

ترتد للخلف، وتختفي ابتسامتها فجأة، فنلتفت، أنا وأمي خلفنا، فنجد أشرف، قد هل كالـــ... لا داعي لتشبيه، فأي

تشبيه له هو ظلم لمن أربطه به..

-لا مؤاخذة يعني يا دكتور أشرف.. هئ هئ..

لا يرد عليها بكلمة.. حقير.. تربت أمي على كتفها، وتنحسر الابتسامة، وتمسك بكفي، تجرني وراءها للصعود خلف ذلك المتعجرف. أشعر بكفها يتعرق.. أم منال تتابعنا من الأسفل، عبر منور السلم، وقد ارتسمت الشفقة على وجهها.. أنظر إلى وجهها الطيب، وأبتسم لها وقد قررت بدء التحدي.. ملت برأسي إليها من فوق (الدرابزين) وقلت:

– أنا ناوي على معهد بصريات أنا كمان، وافتح محل بقى ومنال تبعت لي العيانين الشيك اعمل لهم نضارات.

تشير لي بيدها أن اصمت، وهي تكتم ضحكتها.. وفرحتها تلك الماكرة. أبتسم لهذا المكر الساذج الجميل.. وأصعد خفيفا، منتشيا بالتحدي القادم.

(١٧)

"وماله"

استقبلتها بهدوء.. فقدت إحساس الدهشة أمام أي شيء منه. ولم تنطق لبرهة، ثم غيرت موضوع الحديث. يالها من امرأة!.. تقنعني دومًا أن الحياة لغير نفسي غباء مطبق.

سألها أشرف ثانية.. فأخبرته ثانية نص رد أبيه "وماله".. احمرت أذناه، حتى كدت أضحك. لم يجد ما يقول، وتركنا، ودخل إلى حجرته.

نصر قفز حينها.. ضحك، كما لم أره يضحك من شهور.. أو ربما سنوات. غلبني السؤال – وأنا التي لا أقحم نفسي في شيء يخص غيري منذ دخلت الجامعة –

-أنت فعلا عايز البصريات دا وللا بتعند مع أخوك؟

نظر إليّ متفاجئا.. يحق له ذلك، فربما نسي – كما أنسى أنا كثيرًا – أنني أشاركهم البيت والصلة.. هَمَّ بالكلام، ثم تراجع، حتى كدت أضحك، جازمة أنه كاد يقول لي "أنتِ مين؟".. نفخ زفيرًا قويا، وترك جسده يسقط على الأريكة، ثم نظر إليّ مبتسما..

-أهي حل وسط.. ايه مش عاجبكم؟ مستعد أمسك تاني

في الميكانيكا وأصلا ايدي بدأت تمشي فيها.. وعلى فكرة..

ارتسم التحدي على وجهه بشدة..

-ماحدش هيقدر يقف لي في اللي أنا عايزه.. احمدوا ربنا على كده واكتموا.

ابتسمت.. له تفكيره.. ليس سيئا على كل حال، وهي حريته.

أعود إلى حاسوبي.. لكن قبل أن أستغرق فيه، يأتي صوت غريب من حجرة أمي.. تصرخ!.. أنتظر للتأكد، يفز نصر من على الأريكة، ويخرج أشرف من حجرته، ليتجها إلى باها، ويفتحاه دون انتظار لإذنها.

أشرئب للمتابعة، لكن لا شيء.. ككل مرة. تنهرهما أن فتحا الباب، وتنكر عليهما فزعهما، وتنفي صدور أي صوت. حسنا.. يحق لها بعض الأسرار، لا مشكلة.

(١٨)

كفاية بقى.. كفاية أنت وابوك وعيلة المجانين دي كلها.. ولادك مش جايبينه من بره"

أتكلم من بين أسناني.. أتكلم وأنا لا أدري من أكلم.. إنه لا يدعني أسكن أبدًا، منذ بدأت غيبوبته.

سمعت من حماتي مثل تلك الحكاية قبل أن تموت.. قالت لي إنها.. "دي مش موتة ربنا.. ده هو اللي جي يفطسني.. عرق نجس مادد من سابع جد"!

لم أصدقها وقتها، لكن لا أنكر أنني قلقت.. الآن أتذكر وأتساءل.. أهو مثل أبيه؟.. أيعني ذلك أنني لن أرتاح إلا بعد أن يموت، أو إنه سيقتلني لأموت معه؟.. هل يمكن أن يصل الأمر بي أن أتمنى موت....

قاطعتني الكلمة قبل أن أنطقها.. لم يكن أبدا رفيق العمر أو شريك الحياة.. بالكاد هو زوجي، بحكم تلك الورقة، المخزونة في ذلك الدرج.

أحاول أن أمنع تأرجح جذعي، ولا أفلح.. كأنني في حلقة ذكر لا أكل ولا أتوقف، أنثر الكلمات حولي، كالأذكار.. لكنها ليست ذكرًا لربي.. هي ليست ذكرًا طيبا بأي حال..

"يعني إلا ما نالني قربه في عيشته هيجيلي وهو عفريت!"

ألتفت إلى جواري، وأمد يدًا مرتعشة، ألتقط العلبة، وأضغط حباتها.. أربعة أيضا هذه المرة، ليس للمتعة، بل لأني أكاد أنهار. أسمع صوت العيال يتحدثون بالخارج.. أنصت، أتنهد.. أحمد الله أنهم فقط يتحدثون.

أروح وأجئ وأتجنب النظر إلى الحوائط، أو المرآة.. أحاول أن أفكر في أي أي شيء يشغل كل مساحات عقلي، ولا أجد إلا هو في دماغي. أبدأ العد.. بعد بضع مئات، آخذ في اللخبطة، فلا أقسو على نفسي في التركيز، وأبدأ العد من الواحد مرة ومرتان ومرات كثيرة.

بدأت أهدأ.. تلك الأقراص ساحرة.. أصبحت أفضل رفيق لي في الحياة. لكن ما هذا؟.. أهو حقيقي؟!.. حماي يخطو نحوي في هدوء وبطء!.. إنها هلوسات.. بالتأكيد هلوسات.. هل يغشني دكتور إدريس؟.. ألتقط الشريط في غضب.. بلى إنه هو، سليم، نفس ما آخذه دائما. أرفع عيني إليه مجددا، فإذا به يقول:

"ازيك يا كريمة"..

رددت بسرعة وغضب:

"ما اسميش كريمة"

ضحك، كما كان يفعل في حياته.. تلك الضحكة المستفزة..

أحسست باختناق.. غشت كلمات حماتي عقلي، فأفلتت مني صرخة، حاولت كتمها.. ففتحا الباب.. واختفى.

صرخت فيهما.. أشرف ونصر.. ذهبا محبطين، ولكن ليس الآن.. لا أطيقهما، ولست على استعداد أن يعرفا عن هذا الجنون الذي يحوطني.. سأكلم أباهم في هذا الأمر، يجب أن يشرح لهم، ولابد أن يعرفوا بميراثهم القذر، فلا ينقصني أن يعتقدوا فيّ أني قد فقدت عقلي.

لم أنتظر.. أمسكت بالهاتف واتصلت به.. بالطبع لم يرد من ذلك التجوال باهظ التكلفة، خبل.. ليس ذلك إلا خبالا ومظنة ذكاء ليس فيه. لكنه على أي حال سيرى رقمي ويتصل هو من حاسوبه.

حين رن هاتفي، ووجدت رقما دوليا يحمل صفرين وواحدا.. ابتسمت.. هل قرر أخيرًا أن يعلمني بانتقاله؟

جاء صوته جادًا مقتضبًا في الحديث، فلم أفتح موضوع الرقم، وحكيت له سريعا ما يحدث.. صمت لحظات، ثم.. سبني.. هذا كل ما استطاعه، قبل أن يقطع الخط.

ألقيت الهاتف إلى جواري بالفراش، ومضيت أهز رأسي وأضحك.. أقبل شريط الدواء في يدي، وأشكر الله أن منح الدنيا مثل تلك التركيبات، حاملة الرحمة، حين لا يحملها البشر.

ربما لولا الدواء لسقطت في المرض.. أأنا مجنونة متخلفة، كما يقول؟.. أأصبح قدري عنده يسمح بأن يغلق هاتفه في وجهي؟!.. وجدت دموعي تغافلني، فرفضتها بشدة.. لا يفترض أن أبكي والدواء معي.. مددت يدي إلى الشريط، وابتلعت قرصًا إضافيا.

(١٩)

نظرت إلى نيلي، وقلت:

-الست اتجننت!

هزت رأسها غير فاهمة، فحمدت الله أن أعاقتها اللغة عن الفهم. هل يجب أن أسافر إليها؟.. امتعضت لهذا الخاطر، فذلك آخر ما يمكن أن أرغب فيه، في ظروفي الحالية. بالكاد سمحوا لي بالخروج من المستشفى، وعدت للعمل، مع متابعة الفحوص، التي لا تنتهي.. بالكاد بدأت أستقر مجددا..

لكنه حقها عندي.. هي زوجتي على أي حال..

حين اتصلت بها في اليوم التالي، عسى أن تكون قد هدأت، طال الجرس، حتى ظننت أنها لن ترد. توقعت أن تكون حزينة لإغلاقي الهاتف بالأمس في وجهها.. لكنها ردت..

-ازيك يا ام أشرف

-.........

-ما تزعليش يا ستي بس يعني أنا لما باقول لك إني خفت من ابويا قصدي أني حسيت أني هاموت مش تقعدي بقى تتوهمي وتقولي لي عفاريت!

لم ترد، فقلقت أكثر..

-أنت معايا؟

ردت في هدوء غير طبيعي..

–معاك.

لم أجد ما أقوله.. سكتنا لفترة، ثم سألتها:

–عايزاني آجي؟

–تيجي ليه؟

–أجيلك يا ام أشرف؟

سكتت للحظة، ثم ردت..

–هو أنا اسمي ايه؟

لم أدرك لحظتها ما أرادت، فلم أجبها لثوانٍ، كانت كافية لأن تقول هي "ماتجيش" ثم تغلق الهاتف.

أحسست بصدري يضيق.. لم أتوقع أن يضايقني شيئا من تلك المرأة، بعد كل ذلك البعد، الأطول من مسافات السفر، لكنها نجحت في مضايقتي بجدارة. وكأن ما أنا فيه لا يكفيها، ولا يجعلها تقدِّر أني لا أحتمل المزيد، فكفاني المرض، الذي لا يعرفون له تشخيص.. "معندهاش دم"..

لم يكن أمامي إلا أن أقرر بحزم، وأتصل بأشرف، عليه أن يتعلم أن يكون رجلا.. ليس من المفترض أن يفتقد البيت الرجل في وجوده.

"وللا هي خدمة وفلوس وبس.. حاجة تقرف"

(٢٠)

عفاريت!.. هل جنت تلك المرأة؟.. أما يكفي هَم نصر كي يزيدني ذلك الرجل هم أمي معه. المضحك أنه يتكلم عن أن أكون رجلا!.. يغلظ صوته ويتكلم بنبرة صارمة، كأنني هكذا سأخاف منه أو سأصدقه!.. أليس أولى بالرجولة أن يكون إلى جوار زوجته إن ظن فعلا أنها متعبة؟

ذهبت إليها، أخفي استيائي، فطرقت الباب، ودخلت.. كانت ترقد على الأرض إلى جوار النافذة.. تكره الحر هي، وفي نفس الوقت تكره أجهزة التكييف. إنها نظرية تعقيد الحياة، التي تتبناها.

نظرت لي دون أن تتكلم، فبادرتها..

-عاملة ايه يا ست الحبايب؟

ارتسمت نظرة تعجب لوهلة، ما لبث أن تحولت لبسمة سخرية وردت:

-أحسن منك ومن أبوك.

وقف ريقي في حلقي.. إنها فقط أمي، تماما كما أعرفها.. حاولت الابتسام، وبدا شكلي – على ما أعتقد – غبيًا. اعتدلت ناحيتي،وهزت رأسها متسائلة..

-هات اللي عندك يا أشرف مالكش انت في سكة الطيبة وبؤين الحنية دول..

لم أمنع نفسي من ضحكة صغيرة، وقلت لها:

-ليه بس يا ست الكل دا أنا...

قاطعتني وقد رفعت حاجبها الأيسر..

-أبوك كلمك؟

في حنان حقيقي، لم أتعمده قلت:

-ايوة.. وحكى لي اللي حكيته له..

تنهدت، واقتربت منها أكثر، وجلست على ركبتيّ..

-أنت مقتنعة فعلا أن ده بيحصل؟

وحين لم ترد، ونظرت لي بحدة، سارعت أقول:

-لو مقتنعة يبقى مصدقك يا أمي.. بس فسري لي ازاي!

نظرت وقتها لي نظرة لا أنساها، ثم انقلبت في نومتها معطية ظهرها لي..

-خليك في حالك.. أديك بتاكل وتشرب ومتهنن لحد ما تبقى هاجر وللا تتجوز وتغور من هنا.

الشفقة والتعاطف شعوران منذ سنوات ليسا لي.. لكنني في

هذه اللحظة أحسست بهما يجتاحاني، ونظرت إليها وهي تطردني من حجرتها في هدوء، وأنا أفكر كم هي وحيدة بائسة، أكثر من أي إنسان عرفته.

لم أجد ما أقوله، وربما هي فعلا تحتاج للاسترخاء وحدها. خرجت، وأغلقت الباب، وتأملت قليلا أختي وهي تقلب صفحات الإنترنت في صمت.. تخيرت كرسيا مجاورا وجلست..

– أنتِ ساكتة على طول كده ما بتكلميش حد في البيت ده أبدا!.. ما بتزهقيش؟

رفعت رأسها متعجبة، وسألتني ضاحكة:

– مالك يا أشرف؟ أنت سخن يابني؟

– طيب هاقول بنت ومافيش حوار مشترك بيننا.. طيب مش بتتكلمي مع ماما ليه؟

ضيّقت عينيها تتفحصني في تشكك.. ثم قالت في تهكم:

– مافيش حوار مشترك.. اممم.. أنت مش ناوي تفوق من الغيبوبة الستينية دي يا حبيبي؟ أنا ٩٠٪ من اللي باكلمهم وباعرف أتفاهم معاهم رجالة.. اللي بيتكلموا زيك كده شابوا وماتوا وتاواهم التراب من زمان.

زفرت وهي تهز رأسها علامة أن لا فائدة، ثم استطردت:

– سيبك من الكلمتين دول.. أنت عايزني أكلم ماما ليه؟ حصل حاجة وأنت جوه دلوقت؟

نظرت إليها، وغلبني الصمت.. لا أشعر أبدا أنها بقدر مسئولية أن تعرف شيئا كهذا عن أمها.. لكن بالتأكيد سأحتاجها معي لأخذ أمي لطبيب نفسي، فليس من مفر من الالتجاء لأحدهم. ظللت أحكي لها الأمر في سري، دون أن أستطيع النطق.. حوالي ربع ساعة وأنا جالس أمامها أحدق فيها، وأحاول أن أجد صيغة مناسبة، وإذا بها فجأة قد ابتسمت في غموض، وهزت رأسها، ثم سحبت حاسوبها لتضعه من على فخذيها، وطوت شاشته وهي تقول:

– اللي عايز تحكيهولي ده شيء له علاقة بصرختها كل شوية وتجروا تشوفوها تطردكم؟

قبل أن أردت أكملت:

– على فكرة أنا مصدقاها.. هي مش مجنونة ولا حاجة.

ألجمتني الدهشة.. من أين عرفت بالأمر؟.. أجابتني، قبل أن يخرج السؤال على لساني، وببساطة وهي تعود لشاشة الحاسوب:

– ما هو بيعدي عليّ كل فترة.. بس أنا مش باكرهه زيها فمش باصرخ لما بييجي.

أذهلني ما قالت.. لم أرد.. أي إنسان مكاني لم يكن ليرد..

الأمر أسوأ من أن أحمله.. فليأت هذا الأب ليتحمل مسئولياته، هو أولى بها!.. فالاحتمالان أسوأ من بعضهما، فإما أن الخبل طغى في هذا البيت، وهو ما أرجحه ويقنعني، أو إنه أصبح مسكونا!

تركتها، ودخلت إلى فراشي، وسمعت ورائي ضحكتها التهكمية، وعبارتها الأكثر تهكما..

– بيت ملخفن ولا فايدة فيه ولا حد فيه هيتعدل أبدا من كبيره لأصغر من فيه..

(٢١)

اليوم، وأنا عائد من مكتب التنسيق، وبعد أن قدمت أوراقي برغبتي الأولى معهد البصريات، قابلتها.. "حلوة بنت لذينا".. هكذا قلت حين رأيتها تنتظرني، ولا تغلق بابها. خطر في بالي كل خاطر دنيء، لكنني كنت أعرف جيدا أن أبيها لن يحدث.."البت مؤدبة للأسف".. ضحكت.. "قال يعني أنت اللي واد".

قاطعت أفكاري القذرة، وهي تلقي السلام بصوتها الرقيق، رغم محاولتها أن تبدو جادة..

- ازيك يا نصر عملت ايه؟

- الحمد لله زي ما قلت لطنط قبل كده هو معهد البصريات

بدا عليها عدم الرضا..

- أنت ايه وجهة نظرك فيه دا وانت مرحلة أولى ممكن تدخل كلية كويسة؟

ضحكت، واقتربت منها أكثر.. لا أدري من أين أتتني الجرأة..

- يابت فتحي مخك معايا...

قاطعتني متفاجئة..

- بت!

- خلاص سحبتها.. يا آنسة منال.. تمشي كده؟

ضحكت، واحمرت وجنتاها..

- لا ما تمشيش.

ابتسمت أنا أيضا وهمست..

- يبقى فتحي مخك بقى يا بت.. محل نضارات شيك وابقى بزنس مان وهوب بقى..

اقتربت أكثر، حتى كاد وجهي يلتصق بوجهها..

- وللا انت مش مستعجلة؟

شهقت، وفزعت إلى الخلف وأغلقت باب الشقة.. كنت أسمع همسها وراء الباب وإن لم أفسره. "شكلي هاحبك بجد يا بت يا منوله"..

صعدت السلم، وأنا أدندن بأغنية – لا أذكرها الآن – هذا يوم جميل لي.. بدأت في تحقيق مشروعي في مكتب التنسيق، والتقيت ذات الضفيرة وكلمتها بجرأة للمرة الأولى.. وسأرى أشرف الآن لأخبره أنني لم أعر رغباته اهتماما.. تلك الأخيرة تمثل دفعة كبيرة لي على طريق رجولتي.. "هو دكتور آه.. بس

برضه غبي".

دققت جرس الباب، رغم أن معي المفتاح "غلاسة بقى".. مرت دقيقتان تقريبا، قبل أن أسمع خطوات أسماء، وتفتح لِيّ الباب بوجه محتقن.

– مالك؟

– مافيش.. أخوك ده أصله مستفز.

التفت إلى حجرة أشرف، وقلبت شفتي.. سألتها، فحكت في اختصار شديد وهي تستدير وتعود لمكانها..

– أنتِ زعلانة على أمك وللا زعلانة علشان مش معتبرك حد يتكلم معاه؟

أشرت بيدي أسكتها، وأكملت:

– بصي.. صعب أصدق أنك متضايقة لأمك.. ما علينا.. أما بالنسبة لكونه مش بيحترمك..

همت بالهجوم عليّ وقد احمر وجهها تماما، فتداركت الأمر، وأنا أحاول كتم ضحكي..

– يا بت افهمي..

– بتة تبتك يا ميكانيكي يا واطي..

ضحكت.. ضحكت من قلبي.. لكن أحسست أن أجواء

البيت لا تسمح بالضحك آنئذ، فقطعت ضحكي..

– **ماشي يا دكتورة.. بكرة نشوف مين هيصرف على مين.. واديكي لسه ملطوشة من حضرة الدكتور الشيك يا فالحة. بس على فكرة ما تزعليش.. هو مالوش في معاملة النسوان ولا عمره هتعبره حُرمة.**

رفعت حاجبيها مذهولة..

– ايه يا بني الألفاظ الزبالة دي؟ يا نصر ما تنساش أصلك وتوطى كدا.. الناس بتبقى زبالة وترقي روحها يا أخي.

– **ششششش بلا ترقي بلا تتنيل اديكي أمك ركبتها العفاريت ياختي**

كادت تصفعني بكف يدها، ولكن كظمت غيظها وأعادت يدها مكانها.. ابتسمت..

– **ما تزعليش.. ها.. هنعمل ايه في الغلبانة اللي جوه دي؟**

هزت كتفيها وقلبت شفتيها..

فقط!

(٢٢)

تبا تبا تبا تبا

ماذا يحدث لهذا الرجل؟.. لقد أصبح مقززا.. ما كل هذا البصاق؟.. أتحمل كل شيء.. شعره الذي يقع، ذلك الانطفاء كأنما هو مسموما.. عيناه اللتان أصبحتا تخيفاني، كأنما شيطان يلمع فيهما.. لكن ليس بصاقه المقرف هذا.. تبا لألف مرة.. ماذا يجبرني على العيش معه؟..

ألتفت إليه وهو نائم..

"اوه.. رجل طيب عزيزي"

بالفعل هو رجل طيب، وربما أنا من أصبحت عصبية أكثر من المعتاد.. صديقتي كيرا تعلق كثيرا على عصبيتي.. أصبحت ألجأ إليها كثيرا، وذلك لا يريحني، فأنا أعلم أن لها فيّ مأرب لن أوافق عليه أبدا.. إنها مقززة من ذلك الجانب، لكن بخلافه هي صديقة رائعة، وتساندني معنويا بقوة. فقط عليها ألاّ تلمسني، فإنني أقشعر من نظرتها حينئذ.

إنه نائم.. قال لي الطبيب إنه يضع احتمالات عدة قد تحمل الخطر.. هو زوج لطيف، لا أكرهه بالمرة، ولكن ليس لهذا تزوجنا.. بإمكاني رعايته تلك الرعاية العادية؛ ولكن عليه ألا

يعطلني عن دراستي وعملي، فهما أملي، الذي من أجله جئت لهذا البلد.

أزفر بضيق وأنا أقترب منه.. أتأمل ملامحه وهو نائم مسكين وديع..

"اوه.. لو جرت الأمور إلى الأسوأ فسأحزن عليك كثيرًا"

إنه لا يشعر بي.. أتراه نائما أم دخل في غيبوبة أخرى؟.. تلك الأخرى هناك في مصر تأخذ منه فقط، وأنا هنا أتحمل مرضه وبصاقه. إنها لا تستحق أن ترثه أبدًا..

"اوه تبا!.. ستشفى يا عزيزي ستشفى.. لا زلت أحتاج لأن تكون معي"

على أي حال إنه موعدي للخروج مع كيرا. فلأذهب الآن، فأنا في أشد الاحتياج لأن أريح أعصابي وأسترخي، فقد أصابني الإجهاد طوال الفترة الماضية..

"دعني أعود فأجدك لا زلت هنا يا عزيزي"

أرسلت له قبلة في الهواء، وتسللت خارجة إلى الشارع، حيث تنتظرني كيرا بسيارتها. ليس لديّ سيارة بعد، ولكن ربما قريبا. شفاه الله زوجي، فنفقاتنا هكذا لا تحتمل.

كانت هناك ومعها صاحباها ماركو وروميو.. صديقان رائعان من الفلبين أيضا.. جميل أن تجد من يحمل نفس ملامحك..

رائحة منابتك.. يفهم مداعباتك وأمثلتك.. صحبة في وقتها تماما يا كيرا، أشكرك..

أعرف أنه لو عرف، فلن يحب خروجي مع الشباب.. معذرة هذه المرة يا زوجي الحبيب؛ ولكنها احتياجات إنسانية بحتة.

(٢٣)

– هي التي لم ترض بالذهاب لطبيب.. أراها تقوم بكل ما اعتادت القيام به في روتين طبيعي جدا.. كلامها قليل ولكن تلك طبيعتها منذ وعينا.. أعتقد أنها.. ربما.. لا تحتاج لأن أقلق من أجلها..

للأسف كان رده مصحوبا بتلك الملامح الشفوقة، التي تشعرك كم أنت صغير أو جاهل..

– هل الروتينية علامة سلامة النفس؟!.. هذا يجعلني أدع مشكلتها جانبا، وأنتبه لمشكلتك أنت!

حسنا.. أتته الفرصة للتباهي بتخصصه، وأمسكت الفصحى بلسانه، كما كان يفعل أيام الدراسة، حين كان يظن نفسه أديب الكليّة.. لكنني الآن ليس لدي أفق لسماعه. أريد أن أنتهي من ذلك الحمل، الذي حملنيه ذلك الفار إلى كندا..

– عماد الله يكرمك أنا مش فايق لك وكلمني عدل.. أنا راضي عن نفسي بما يكفي أني ما أجأش لأمثالك يا أخي.

ضحك هازا رأسه يأسًا مني، وقال:

– ماشي ماشي.. والنبي أمثالي دول اللي مخلين البشر لسه ماشيين على رجليهم.. خلينا في الوالدة.. لازم تجيبهالي طبعا.

– مش هترضى.

بعناد وبرود قال:

– ما ينفعش.

لم أطقه أكثر من ذلك، فصحت في وجهه..

– أمال أنا جايلك أنت ليه ما كنت رحت لدكتور محترم..

قاطعتني ضحكته مجلجلة، فقاطعته أنا الآخر..

– هتيجي أنت تشوفها في البيت.

باستفزاز رد..

– كشف منزلي ٢٠٠ جنيه.

كدت أصفعه، لكنه كان جادًا هذه المرة، وكنت أحتاجه..

في الطريق سألني:

– مش ناوي تتجوز؟

ابتسمت ولم أرد.. لا أدري كيف يعمل هذا الرجل طبيبا نفسيا، وعقله دوما يقف قاصرا عند العادي والطبيعي، ليس باختياره، بل طبقا لما يحكم عليه به مجتمعه.

– هو أنت بتتجنب الستات ليه؟

– هتجنبهم ليه؟.. بس مش أولوية.

– ده مش ضد الفطرة في نظرك؟

شملته بنظرة مستهينة، قبل أن أجيب:

– ده ضد طموحي.

لم يعلق، وإن ظل يتأملني طويلا، حتى وصلنا أسفل البناية، فابتسم وهو يترل من السيارة..

– سواقتك بتفشي كتير عن شخصيتك.

"هيعمل لي فيها عالم روحاني.. الله لا يسامحه اللي حوجني لك يا عماد!"

(٢٤)

وصلت متأخرة بعض الشيء، فقد فاجأت نفسي بقراري المجئ مشيا، بعد أن نزلت في موعدي المعتاد. كنت أمد الخطا إلى موظف توقيع الحضور، حين ناداني.. لم يكن لدي أي استعداد لتحمل ملله. ابتسمت تلك الابتسامة المصطنعة السخيفة، التي تقول بصراحة: لا أطيقك.

– أهلا ضياء.

– وحشتيني يا أسماء

– ههه ميرسي.

كان كالأبله وهو يبدي حزنه وهو يقول:

– أنتِ متغيرة قوي بقى لك مدة وأنا مش شايف أن في حاجة حصلت للتغيير دا!!

تنهدت، واجبته بكل جزء فيّ.. يداي تشيحان، ورأسي يلف في أي اتجاه سوى وجهه، وقدمي تضرب الأرض في عصبية..

– أنا ما وعدتش يوم بأي حاجة علشان تقول لي اتغيرت.. لو سمحت ما تقوّلنيش حاجة ما قلتهاش وحاول تنسى الموضوع ده لأنك عارف أني ناوية أسافر أصلا ومش هارتبط نهائي لا بك

ولا بغيرك.

اقترب مني قليلا، وهو يظن أن يؤثر فيّ بتلك القوة والذكورة، التي يعتز بها كثيرًا..

– بس في لحظة كنتِ في ايدي زي العصفورة.. اترعشتِ.. لحظة بتكدِّب كل اللي بتقوليه دلوقت.

ذلك الغرور العجيب أكرهه.. لا أدري لماذا أضعه في سلة واحدة مع أشرف وأبيه.. رغم إنه سخي بعوطفه، إلا أنه وجه آخر لنفس الرجل.

ابتسمت قائلة:

– وأنا مش هانكر أن بوستك عجبتني.

احمر وجهه.. لم يستطع النطق بكلمة.. أُدرك تماما وقع جملة كهذه على رجل من هذا المجتمع.. تركته وأنا مستمتعة بتخيل الصراع الذي سيعانيه في تفسيرها، وفي استنباط ما قد يكون وراءها من خلفيات، وتلك الشكوك التي ستحيطني في ظنه، ثم تزاحمها صورتي البريئة التي يحب رسمها بعواطفه المثالية، في سجال يودي بأعصابه.. ما المانع؟.. جميل أن أضايقه قليلا.

تركته، ولحقت بالدفتر، والرجل يحمله لتسليمه، فوقعت حضوري، ثم ذهبت إلى العيادة. طيب ضياء على ما يبدو.. "فيه شيء لله الواد دا!" فكأن مضايقتي له يجب أن ترد إليّ..

من قال إن طب الأسنان وظيفة تليق بامرأة!.. إن وضعية المريض والتصاق الطبيب به تذكرني بيوم ذهبت لطبيب الأذن، وكنت بين فخذيه تماما كي يكشف بمنظاره على أذني. ضحكت للخاطر.. لكن جاءت الضحكة في غير وقتها، فظنها ذلك المريض السافل قبولا لوضاعته.

وبالطبع، انتهى اليوم بتحقيق لدى أمن المستشفى، الذين لا يكادون يعملون في غير شكواي المتكررة.

يقول لي الضابط:

– هو ليه مافيش حد من زميلاتك بيحصل له كده غيرك؟.. ما فكرتيش يكون العيب فين؟

ينظر لي ظانا في نفسه الذكاء.. تلميح حقير بغرضٍ أحقر، ولابد من رد بنفس الحقارة..

– والله كل واحد بيشتكي من اللي يضايقه اللي مش بتتضايق بقى دي احتياجات تخصها ما تخصنيش.

أراد أن يرسم وجها يناسب زيه ذا الهيبة، ولكن.. "على نفسه لا مؤاخذة".. أنصرف وأنا أحدث نفسي.."ماليش مزاج أنا اقفل من الرجالة بس هم مصرين يقفلوني الزبالة دول"!

(٢٥)

أحضر لها أشرف الطبيب، لا يمكنني أن أعيب عليه. ماذا يمكن لأي منا أن يفعل أكثر من ذلك.. رغم أني أرى الأمر يحتاج شيخا وليس طبيبا، إلا أنه لا مانع من أن تشعر باهتمام الرجل الأهم في البيت: دكتور أشرف بشخصه المبجل.. ماذا عندها؟ شيء معقد لم يفهم أحدنا ما هو.. لا داعي لـــ (كلام الأفندية)، الذي قال الطبيب الكثير منه، بل لقد طلب أيضا أن يأخذها إلى المستشفى، للاستجمام حسب كلامه.

- هو أكيد بيبالغ شوية ما هي سبوبة كويسة.

حين قلت ذلك، هب أشرف في وجهي..

- سبوبة يا صايع.. اتكتم خالص.

وانكتمت.. لكن بعد أن أكملت رأيي..

- إلا حتى الست ما نطقت معاه كلمة ولا رضيت تعبره.. واهو حتة عيل لسه مالحقش يشوف عيانين ولا يفهم طب.

بالطبع كانت الإهانة تلحق بزميله، وبمن أتى به.. وبالطبع أيضا حرصت على أنهي الجملة وقد وصلت لباب الشقة وأمسكت مقبضه.. هرولت على السلم وأنا أضحك.. "آه أنا

عيل.. معلش الجري في الحالات اللي زي دي هو الجدعنة كلها".

قاطع ضحكي أن كدت أصطدم بخالتي أم منال.. كانت صاعدة للاطمئنان على أمي، بعد أن عرفت – لا أدري كيف – أن الطبيب زارها اليوم. ربما كلمتها أمي، أو ربما تسلي نفسها وراء تلك العين السحرية في بابها.. قلبت شفتيها مستاءة، إذ كيف أضحك وأنزل تاركا أمي وقد سبقني الطبيب منذ بضع دقائق فقط.

– ازي أمك يا نصر؟

– زي الفل يا خالتي.. اتفضلي هي صاحية.

مصمصت بشفاهها، وصعدت غير راضية عني. أكملت خطواتي نحو باب العمارة.. لكن قاطعني ذلك الموسوس في أذني، فالتفت ورائي، نحو باب أرى وراءه ظلا مرحبًا.

(٢٦)

ثلاث شهور تقريبا لم يتصل أحدهم بي.. دخلت المستشفى مرتين خلالهم، فما درى منهم أحد عني. تلك النوبات تغتال أعصابي.. أشعر كأن أطيافًا خبيثة تكبلني وتشلني.. قال الطبيب إنه – بمبدأ الاستبعاد – فتشخيصي هو حالة نادرة تسمى شلل النوم أو شيء بذلك المعنى.. ما علاقة الكوابيس والرعب الذي يحدث لي بالشلل؟!.. قال إنه تلازم نفسي للمرض ولكن عليّ أن أؤمن بأنه ليس خطرًا حقيقيا.. غباء.. كل حياتي تتدهور، والبارد يقول ليس هناك خطر!.. أبصق بكل ما أوتيت وأنا أرتعش.. ألم يجد ذلك النادر غيري ليصيبني؟.. أستغفر الله.

غضب متأجج بداخلي عليهم جميعا.. غضب على أمهم، التي لم تعلم أبناءها كيف يبرون أبًا شقى وتغرب، لأجل ذلك الترف، الذي لا يحمدونه عليه.. إن ضعت في إحدى نوباتي، فلأمت وأنا غاضب عليهم، فهم يستحقون ذلك. هي كذلك معلقة في ذيل رضاي.. سأموت وأنا غير راضٍ عنها – إن مت – سأكون راضيًا عن نيلي فقط.. ربما أقنعها في الأيام القادمة أن تُسلِم، وأموت راضٍ عنها لتدخل الجنة..

أبصق.. تراني وتتقزز.. لكنها تأتي رغم ذلك وتربت على

كتفي في حنو حقيقي..

– عصبي؟

أهز رأسي أن لا.. تربت على كتفي ثانية وتذهب. هي من تتحمل عصبيتي، ومرضي كل حين، وبصاقي الدائم.. تتفهم أنني حين أفعل أكون في أوج ضيقي، فلا تلكزني بكلمة عن قذارة ما أفعل، لتزيدني عصبية.. رائعة.. في كل شيء هي رائعة.. نظيفة، بشوشة، حمولة.. تشاركني الحلوة والمرة. ماذا ينقصها لتدخل الجنة سوى أن تُسلِم وأن أرضى عنها؟.. لا شيء..

تذاكر هذه الأيام كثيرا.. اقترب امتحان إجازتها العلمية، وتحتاج لكل وقتها، ولكنها لا تقصر في خدمتي.. أنا أيضا أدعو لها كثيرا جدا.. أحثها على بعض الاسترخاء، وآذن لها بالخروج كل فترة..

لها صديقة من بلدها، اسمها كيري تقريبا.. معها في العمل وتبدو متحفظة مع الرجال، بالنسبة للحريات المفتوحة هنا. لا أخاف على نيلي معها، وحتى إن تأخرتا قليلا، فدوما معهما بعض الأصدقاء من العمل أيضا، فهم إذًا في جماعة. أنا أدللها جيدا في الفراش؛ رغم مرضي، فمم أخاف؟.. جيد أن يكون لك رفقاء من نفس منبتك.. فلتخرج، فهي لا تقصر أبدا، وعليّ أن أكون (جنتلمان).

يبدو أنني سأضطر لسحب بعض المال من البنك في مصر. إن لم أكرم نفسي في مرضي، ففيم المال؟.. ألينعم به الجاحدون؟ أهو "مال الكتري للترهي"؟..لا.. علاجي أولى بمالي، ونيلي تستحق بعض الإغداق أيضا.. منذ متى لم آتها بهدية؟.. ربما منذ أتينا هنا!.. هي لا تشتكي، ولكن كل امرأة تحتاج لمثل تلك اللمسات.

قاطعتني صورة تلك الأخرى، فبصقت.. وجه نكدي لا يستحق أي شيء.. لا آخذ منها إلا أخبار مشئومة، وهموم دائمة، لا تكل عن تضخيمها، وأخيرًا ذلك الجنون، الذي تصر عليه.. علمت منذ آخر مكالمة من أشرف أنه أتى لها بطبيب زميله، وهي من رفضت الذهاب للمستشفى.. متخلفة.. ولكن أنا قد برأت ذمتي منها هكذا، فلم أكن لأحجب عن علاجها مالاً. مستمرئة للاكتئاب والنكد والجنون؛ فلتستمتع باختيارها، ولا حق لها عليّ.. المرأة هي من تستحق، وما أبعدها عن أن تكون امرأة.

(٢٧)

بعض الفاكهة إن تذوقتها أدمنتها.. تماما كما مزاج الحشيش. الحشيش لا يأخذ وعيك على الإطلاق، بل ربما يجعلك تزداد انتباها.. لا تصدقني؟ فلماذا إذًا يدخنه السائقون، وخاصة أولئك على الطرق الطويلة؟.. هل اقتنعت؟.. إذًا فستقتنع أيضا أنني معذور أن أخون الجيرة والعشرة..

"ما هي راخره ما حاشتش روحها.. إن كنت أنا راجل وشهوتي بتغلبني هي بت والمفروض تحافظ على نفسها"

أبصق.. متقزز من نفسي أبصق مرة ثانية بعنف.. كيف أفكر بذلك المنطق، الذي يناسب (بأف) مثل أشرف مثلا؟.. طول عمري أحترم صنف النساء.. لم يحس أحد بتعظيم أمي مثلي. حتى صمتها الحالي.. "سلتت ايدها من كل حاجة غير الخدمة وبس".. محترمة.. "فعلا محترمة وكفاية ما صاحبتش راجل غير الـــبغل دا".. عجبا لذلك الذي لا يقدِّر احتياجها لرجل معها.. "بالاسم وخلاص متجوزة.. جتك قرف راجل طرطور زي قلتك".. والنبي هي أرجل منه ألف مرة..

لكن لم يزل الأمر مختلفا.. أمي وضع آخر.. لن أقارن واحدة أيًا كانت بأمي.. "منال شريفة أنا عارف.. وأنا أكتر واحد

هيعرف لو اتقدر لها راجل بعدي..".. أنا من رأيت استحيائها من مجرد قبلة على خدها.. ارتجافة الخوف حين اقتربت لأضمها.. أقسم أن رجلا لم يمسسها قبلي.. هذا الانفعال الخام في عينين تائهتين هو شهادة ببكارتها أكثر من دم البكارة نفسه.. "بس وآخرتها.. الموضوع مش بيقف عند حد والبت زي اللي نفسها اتفتحت وللا أدمنت!"

ثلاثة شهور أكاد أقتنص فرصتي للخلوة بها يوميا.. إن مر يوم دونها، نندفع أكثر في اليوم التالي.. لم يبق من شيء يحتجزنا إلا قلة الوقت المتاح..

"انا لو عليّ اتجوزك يا منال بس لسه قدامي وقت.. أخلص معهد وأشوف لي محل واستقر.."

في همس لا يكاد يسمع من فرط انفعالها، بالكاد أفسر أنها عارفة.. "كانت في جرة وخرجت لبرة البت.. أتنيل أعمل فيها ايه دلوقت؟".. ليس ذنبها.. أنا من علمتها تلك الشهوة.. أنا من أذقتها المتعة.. لو حتى فكرت في تركها – كما حلمت مرة بأمها تصرخ بي أن أتقي الله فيها وأبتعد عن سكتها – هذا يخيفني عليها أكثر.. "مش باستهبل ولا حاجة.. بس البت لو وقعت في ايد واحد ما بيتقيش ربنا هتضيع.. هي خلاص بقت عايزة ومش هتحوش روحها"..

دائما أصل لهذه النتيجة.. معي أحفظ لها من غيري... لا أنكر أيضا أنني أعتقد أني أحبها. "هي تملا عين التخين الحق يتقال".

أنتبه للعدسة في يدي.. وللمعيد يراقب شرودي.. أطمح في لحظة أن أصبح مكانه.. "ايه الصعب في كده؟ دنا داخل المعهد بتاعه دا بقد مجموعه مرتين."

أحب العمل في العدسات.. أرى فيها فلسفة جيدة.. قطعة زجاج تشكلها دون أن تخدشها – تماما كمنال أحبها ولا أخدش عذريتها –.. أعشق عدسات الشمس.. أحيانا أسرح في وجوه البنات.. "هُبل بيفتكروها معاكسة وقلة أدب".. أتخيل لكل وجه نموذج الإطار (الشنبر) الملائم لوجهها..

هل يمكن أن أجد في أبي فائدة أخيرًا، فيورد لي شنابر من كندا؟... أطلق صفارة خافتة.. "ولو توكيل ماركة بقى يبقى لوز"!

(٢٨)

- صباح الخير يا دكتور إدريس

- أهلا أهلا ازي حضرتك

أشار لي بغمضة جفن سريعة أن أنتظر.. جلست على ذلك الصندوق في جانب الصيدلية حتى ينتهي ممن أمامه من زبائن.. وحين خرج آخرهم، هممت بالقيام، وهم هو بالابتسام، فمحا بسمته دخول رجل أنيق، جاد الملامح..

- ازيك يا إدريس جهزت الحسابات؟

- ايوة يا دكتور أهلا وسهلا .. اهيه هنا..

ناوله بعض الأوراق، ورزمة مالية، وأشار له ليوقع في صفحة ما..

- فايزر بيقولوا بقالك كتير ما طلبتهمش..

- يا دكتور أصلا مندوبهم المفروض ييجي يعمل الطلبية. احنا مصلحة مش قليلة لهم يعني و..

- عندك فياجرا؟

- عندي طبعا..

- قد ايه؟

–   بيجي ٥ علب لسه اهم.

–   يبقى تكلمهم بكرة أنا هاخد الخمسة دول لناس طالبينهم في النادي.

انصرف ذلك الرجل (الدكتور).. أول مرة أصادفه، وأعتقد أنه ليس من قاطني الشارع. أنتبه على صوت دكتور إدريس..

–   اتفضلي يا هانم.

هانم!.. أول مرة أنتبه لأسلوبه.. اقتربت، لآخذ علبة الدواء..

–   بس أنتِ بقيتِ بتاخدي كتير قوي.. هو مش ملبس زور.. وله أضراره برضه.

سألته بلهفة..

–   بيعمل تهيؤات؟

ارتبك قليلا، وقال في إجابة دبلوماسية..

–   هي الدنيا مش ناقصة تهيؤات يا مدام.. حافظي على صحتك ماحدش بينفع حد لو رجليكِ ما شالتكيش ماحدش هيشيلك.

أوجعني كلامه.. أخذت علب الدواء، والتفت لأذهب، لكن واتاني مدخل آخر للحديث..

–   إلا هو معهد البصريات دا كويس بجد زي ما الواد نصر

بيقول؟

– نصر مين؟

– ابني.. أصله جاب مجموع حلو السنة اللي فاتت وكان مرحلة أولى حتى.. بس ساب الكليات كلها ودخل المعهد ده.

رفع حاجبيه، وهز رأسه في تعجب..

– هيندم..

اقتنصت الفرصة..

– هو أنت خريج ايه يا دكتور إدريس؟

نظر لي في لؤم، وبدا أنه فهم ما أرمي إليه..

– اللي شفتيه من شوية ده الدكتور صاحب الصيدلية.. أنا دكتور يا حاجة زيه بس هو عنده فلوس يعمل صيدلية وأنا مامعييش فباشتغل عنده.

ابتسمت، وكأني أعتذر.. "كنت بس عايزة اتطمن أن الدوا اللي ببلبعه ده سليم مش مديهولي عامل أجزخانة".. لم أقل له بالطبع، ولكن شكرته وخرجت من المكان..لحقني بندائه..

– لو معاكِ فلوس تفتحي لابنك محل يبقى ابنك صح.

ابتسمت ومشيت.. زحام.. ما كل هذا الزحام؟.. حين سكنا هنا، كنت أنا التي اخترت الشقة، وأنا من جهزتها.. يرسل لِيَ

المال، وأتولى هنا إعدادها.. كان المكان شديد الهدوء، حتى إنه لم يحبه كثيرًا.. كل بناية زادت عدة أدوار.. كل ساكن أتى لنفسه بسيارة، لا جراج لها.. والطامة الكبرى، حين تحول مسار الأوتوبيسات إلى الشارع..

أحاول أن أعبر تلك الأمتار، لكي أتخلص من كل تلك الضوضاء التي تهزم رأسي.. لكن "ماحدش عنده ريحة الدم يهدي شوية عشان الناس تعدي".. أرسل بصري إلى الشرفة، أسرح في الغسيل، الذي نسيته منذ يومين على الحبال.. ربما سيحتاج للغسل مجددًا.. "هباب الاوتوبيسات دا بقى غُلب..".. أشرد في قطع الغسيل، فألمح تلك القطعة.. "الطرطور!".. أشهق.. لم يحدث من قبل أن وجدت له أثر.. فقط يظهر ويلقي بسُمِّه في كلمات ثم يذهب.. كيف أتى طرطوره هنا؟.. أأنا غسلته ونشرته بيدي؟..

أنسى الزحام.. أنسى آلام قدميّ.. أندفع فارضة إرادة المشاة فوق رعونة السائقين وكبرهم.. أسمع سبابهم، ولكن لا يهمني.. رغم تركيزي مع الطرطور، أبتسم منتصرة عليهم جميعا.. يقفز إلى ذاكرتي زمن كنت فيه أفرض كلمتي في مكتبي، قبل أن يصدر الأمر على الهاتف بتلك الإجازة بدون راتب، التي امتدت، حتى ما عدت يمكنني العودة.. "هارجع يعني نيو لوك.. بدل الجد والحزم اروح مش بافهم إلا في البطاطس ومساحيق الغسيل.. يللا هي جت على دي.."

لم أذهب اليوم.. "يتحرق الشغل".. لا لم يستجد أي شيء، ولا أي مشاكل؛ لكنه بعض الملل من ضياء.. في الحقيقة ليس مللا بالضبط؛ لكن ربما لا أريد مواجهته.. أعرف أنني أحبه في حقيقة الأمر، لكنني مصرة على إكمال طريقي، الذي يختلف تماما عمّا يرسمه لنفسه من مسارات، غائمة وسط الشعارات الوهمية.

العجيب جدا هو ذلك التناقض بين ما يخططه لنفسه، وبين زاوية رؤيته لي!.. ثائر داعٍ للحريات السياسية والاجتماعية، ثم هو أول من يمارس ديكتاتوريته بحجة الحب والخوف على من يحب من ذئاب الشوارع.. إنه باختصار ذلك البرهان الدامغ على غلبة جذور التراث التربوي على كل غرس فكري جديد؛ مهما لبس أرديته، فالجسد لم يتغير.

أذكر -ذات مرة- كنت سأخرج في وقفة احتجاجية بوسط البلد، فعارضني.. لم أكن وقتها كما أنا الآن، بل كنت لم أزل في مرحلة انبهار جاهل بثوريته وكلماته.. أتضاءل أمام قوة نظراته، وأبجديته.. ذلك الجبروت المعنوي منعني من النزول مع الواقفين، وبقيت أتابع الأمر من الجرائد في غيظ؛ ولكن أيضا في رضا أن أطعته.

في اليوم التالي، كان يحكي كثيرًا عن تلك الوقفة، وكل ما لاقوه فيها، حكى أن ضربة قوية على الظهر كانت نصيبه من الكعكة.. تمنيت وقتها أن أنزع عنه قميصه وأرى وألامس أثرها بأناملي.. شردت مع بطلي الأسطوري، حتى انتبهت أذني وهو يكمل قاصا لما بهرهم من تلك الفتاة الرائعة، التي تحدت لواء الشرطة في رباطة جأش لم يملكها الرجال. حينها لم أسمع باقي حديثه.. إنه منبهر بفتاة، لأنها فعلت ما منعني بنفسه عنه..!

تركت الجمع في هدوء، ومضيت أراجع حساباتي..

بالأمس فقط رددت له تلك الطعنة، التي ربما لا يتذكرها، وإن ذكرته بها، لن يفهم معنى لها. أضحك وأنا أتذكر صدمته في كلمتي.. ما الخطأ في أن أقول له إن ما استمتع به، أنا الأخرى استمتعت به؟.. لم يتطور ذلك الجنس المتخلف منذ كانت الفتاة تقرص خديها، ليبدوا أحمرين خاطفين لقلبه.. صحت – مستغلة أني وحدي في البيت – "واااا أسفاااااه"!

هممت بالبصق.. ثم تراجعت وضحكت في قوة.."ايه يا جدو ما تركبنيش أنا كمان.. مش هتِف.. والعب مع ماما بعيد عني أنا لسه صغيرة"

أسمعه وهو يقهقه.. "بنت ابني.. العرق يمد"

فتفلت مني البصقة، التي منعتها.. وأقول في عصبية.. "عرق

نتن"..

يفزعني صوت المفتاح في الباب مقاطعا.. وتدخل أمي، ويختفي صوت جدي..

تحمل كيسا بلاستيكيا صغيرا، يبدو ما بداخله كعلبة دواء، تدخلها إلى حجرتها، وتخرج إلى الصالة ثانية.. تلف بنظرها في الشقة، عيناها تائهتان، كأنما تبحث عن شيء ما..

– بتدوري على حاجة يا ست الكل؟

– والله يا بنتي نسيت..

أبتسم في حنو، وأتأمل حيرتها.. جميل وجهها، ولمسة الانكسار عليه تعطي جماله جاذبية لا أتمناها لنفسي؛ لكنها موحية للغاية.. بعض الانكسار قد يفتح أبوابا للقوة!

تروح وتجئ.. تحدث نفسها محاولة تذكر ماذا تريد، ولا تتذكر.. في النهاية تدخل إلى المطبخ، لتغرق أفكارها في ماعونها.. أتأملها لبعض الوقت وهي تتحرك في آلية من حفظ ما يفعله على مر سنوات عمره، بلا وعي.. أتساءل، وأتجاهل الإجابة.. "هو أنا ليه ماعنديش دم ومافيش مرة أقوم أساعدها في شغل البيت؟!"

(٣٠)

لم أرد لهذا أن يحدث أبدًا.. أبدًا.. لو كان ماركو أو روميو لما حزنت كل هذا الحزن.. لكن لم يكونا.. في الأساس هما لا يريداني، ولا أي امرأة غيري.. لم أكن أعلم.. أقسم أني لم أكن أعلم.. في المساء، بعد أن خرجنا من السينما، ذهبنا إلى شقة كيرا، لنمرح قليلا، كعادتنا.. لكن بدت الأنفاس لاهثة.. استئذنا كيرا، فضحكَت، ودخلا إلى غرفة نومها، دقائق قليلة ثم علا صوهما.. أدركت ما يحدث، فتركت كأس العصير من يدي، وهببت واقفة في ارتباك.. لم تترك لي فرصة للتفكير.. قالت ببساطة إنهما ربما يعلنان نفسيهما زوجين قريبًا.. تقززت.. فضحكت في مجون.. سحبت حقيبة يدي، وهممت بالقيام للانصراف، فهاجمتني.. كانت تعرف ما تفعل جيدًا، شلت حركتي، واستغلت المفاجأة وفرق حجمينا، فاهتصرتني تحت ضلوعها..

تركتني أنصرف بعدها، وهي تصب لنفسها كوبًا من الجعة هادئة غير معترضة، ولا معلقة أي تعليق. آاااااه.. لن أبلغ عنها.. ليس وأنا لم أحظ بالجنسية بعد.. لا أريد مشاكل من أي نوع. هي ليست سهلة، وعلاقاتها متشعبة، وحذرتني صراحةً من التهور.. كل ما أرجوه أن تزول تلك البقع الزرقاء من جسدي،

قبل أن يرغبني نعيم، فهو لن يحتمل إخباره بشيء كريه كهذا..

أستوقفت تاكسي ووصلت البيت سريعا، وألقيت نفسي على أريكة بالصالة. سمعته يناديني، ففززت في مكاني.. أستجمعت نفسي، وقمت إليه.

كم هو رفيق بيّ!.. يسألني عن مذاكرتي وامتحاناتي.. يكلمني عن المستقبل.. عن حياتي معه، وبعده.. بدأت أقلق، فسألته فيم كل ذلك.. فاجأني بتذكيري بفكرة قديمة، كنت قد اقترحتها قبل زواجنا.. الإسلام.. يقول إنني لو أسلمت، ومات وهو راضٍ عني، فسأضمن الجنة!.. ما تلك السخافة؟!.. من هو ليدخلني الجنة، أو حتى يدخلني حجرته دون أن أخطو أنا إليها.. لم تكن تنقصني سخافته.. منحته ابتسامة، ووعدًا بتدارس الأمر معه، بعد أن أنتهي من الامتحان أولا. أقر ذلك عينه، فذهب في غفوة جديدة.

أمسكت كتابًا، وبدأت المذاكرة.. لابد أن أدفن مصيبة اليوم في عمق الأوراق، وأكمل طريقي.. بين الحين والآخر، أرفع عيني إلى ذلك النائم هناك يلهث، لم أعد أفزع من كوابيسه تلك، فقد أخبرنا طبيبه أنها جزء من مرضه، وقال إن الأمر ليس خطرًا. وحتى إن كان خطرًا، ذلك يجعلني أصر أكثر على إنهاء دراستي.

(٣١)

ضحكه كان غير طبيعي بالمرة وهو يسألني للمرة الرابعة "انت بتتكلمي جد؟".. رددت أكثر من مرة بسؤاله عن الغريب في الأمر من وجهة نظره، وفي كل مرة يتوقف عن الضحك قليلا، وينظر لي بعين حائرة، ثم يعود لضحكه. لم نتعود أن نتكلم كثيرًا – أو حتى قليلاً – لكن أعتقد أن هذه المرة تحتاج مني أن أكون أختًا..

همست إليه..

– أنت بتحبها يا نصر؟

ضحك أكثر.. هز رأسه، لا أدري نفيًا أم استنكارًا.. قام لينصرف وهو يقول..

– أنت مش فاهمة حاجة..

أمسكت ذراعه، وسألته برفق..

– فهمني طيب..!

نزع ذراعه مني، واندفع إلى حجرته في عصبية، ولمحت دموعا تغالبه، ولا يكاد يغلبها.

دخلت لأمي.. كانت مقرفصة على الأريكة تحت شباكها،

تقرأ الجريدة. جلست إلى جوارها قليلا، فلم تحاول أن تقطع قراءهّا وتمنحني التفاتة..

– ماما..

– ها

– نصر بيحب منال.

– مانا عارفة.. أمها قالت لي.

– أمها عارفة هي كمان!.. أمال ازاي...؟

طوت الجريدة، ووضعتها إلى جوارها في عصبية، وانقلبت ملامحها لمزيج من السخرية والقرف..

– أنا قلت لها توافق.. جاي لها عريس زي الفل معيد في الجامعة عنده شقته وطول بعرض بجمال.. اديني سبب أنها ما توافقش عليه!

– هي مش بتحب نصر يا ماما؟!

ارتسمت على وجهها ابتسامة ماكرة..

– لو بتحبه.. ماكنتش تبعت أمها تسألني علشان تشيل الغلط من عليها.

حط عليّ صمت الهزيمة.. منطقها قوي لا يستهان به. بعد دقائق، تبدل وجهي إلى الابتسام وأنا أنظر لها بإعجاب، فأخفت

ضحكة، وهي تنهرني في غير جدٍ..

– امشي يا بت من هنا خليني اقرا الجرنان.. مستغربة ليه ياختي ياللي عاملين فيها كبرتم وانتم لسه اول امبارح كنت بمسح لكم خـــ...

قاطعتها..

– خلاااااص مش لازم الحتة الأخرانية دي.

قمت، ولم أتمالك نفسي، فقبلت رأسها بحب واحترام.. وأنا في طريقي للباب، قالت..

– ما تخافيش على أخوكِ.. نصر جدع وواعي للدنيا ومش بنت اللي تضيعه.. بس برضه خليكِ معاه خليه يحس أن له حد في الدنيا حاسس بيه.

لا أدري لماذا أوجعني قولها.. أخافتني بشكل ما.. فكرت في الرجوع للجلوس إليها وجر الكلام؛ لكن تراجعت.. ربما أنا من لن أحتمل الاقتراب أكثر!

صدمة.. هذا هو التعبير الوحيد، الذي يمكنه وصف حالتي. أحسست بما كان يقول نعيم عن برودة حس ذلك الطبيب.. كل ما فعله أن هز رأسه، وقال لي: "إنه ربما يحدث!.. غالبا لن يحدث؛ ولكنه حدث"

حدث.. وأصبحت وحيدة جدًا.. لا أستطيع حتى البكاء.. أفتقد الإيناس، ونداءه، وحتى خدمته في مرضه. الآن ليس لي إلا كتبي، أذاكر فيها، وأتطلع إلى مكانه في الفراش، منتظرة أن يفيق من نومه، ويناديني إليه.. لا أحد.. لم يعد أحدٌ في الفراش سوى وسادة باردة أملأ بها حضني..

هاتفه يرن.. لا زال اشتراكه قائما، لم ينتهِ.. إنها زوجته الأخرى، لم تدرِ بموته.. اتصلت عدة مرات وأنا لا أرد. لا أعلم كيف ذلك، وبأي مبدأ، ولكنني لا أريد إخبارها.. من حقي أن أستأثر بخبر أخير عنه. أنا رفيقته الحقيقية، وأنا من حضرت النهاية.

لست في حاجة أيضًا لأن يطلب مني أحد حساباته.. كان غاضب عليهم جميعا، فلا يستحقون من بعده شيء. ربما لم أعتنق دينه، كما كان يريد؛ ولكنه كان راضيا عني، ويردد ذلك دائما.

ضغطت زر الإسكات وأخذت أراقب اتصالها اللحوح، حتى سكت.

عدت لأفكاري..

"يسمى باختصار SUNDS .. كما ترين اسمه يشي بكونه شيء مفاجئ وغير متوقع، فلماذا نخبركم باحتماليته؟"

باردٌ كان الطبيب.. والجو أيضًا بارد جدًا.. أشعر أني أرتعش، وأفتقد حضنه.. ألجأ للسرير، وأتدثر.. لكن رعشتي تزداد.. لو كان هنا، لاحتضنني، وربت عليّ، فأجد فيه الحبيب والأب والدفء. لا أعرف جيرانا هنا بالقرب.. لا مفر لي من طلب المساعدة من أحدهم، فللأسف، لم أكوّن صداقات مع غيرهم بعد.

أدق اتصالا بماركو، وباختصار شديد أخبره أني مريضة، وفي حاجة للمساعدة.. فيقول إنه سيتصرف، وينهي المكالمة. منهكة للغاية، بما لا يدع لي فرصة أن أفكر في شيء.. سيتصرف ماركو، فلأهدأ الآن.. خلعت مسئولية نفسي من على كتفيّ، وغبت في نوم عميق، لا أدري كم طال، فلم أفق منه إلا على جرس الباب يدق طويلا.. قمت بصعوبة، وأنا أشعر بالحمى قد أعلنت عن نفسها أخيرًا.. هذا أفضل، فأنا أحب تعبي مفسرًا، كي أبحث عن علاج منطقي له.. يبدو أن حالة نعيم سببت لي عقدة من المجهول. فتحت الباب، ووجدتها أمامي.. كيرا!

(٣٢)

للمرة الـــ... لا أدري.. لا يرد عليّ. أغاضب مني، أم راح في غيبوبته.. أعرف أني قصرت في السؤال؛ مع علمي بمرضه.. بالتأكيد غاضب عليّ..

أزفر بشدة، وأرمي الهاتف على الأريكة، وألف في الحجرة حول نفسي.. ماذا عن غضبي أنا عليه؟.. كيف يكون عليّ وحدي أن أسأل وأطمئن وأتابع؟!.. إن كنت لم أسأل، فهو أيضًا لم يسأل. كان يعرف أني متعبة وأقترب من الانهيار، ولم يكلف نفسه السؤال.

لا تطاوعني نفسي أن أدع الهاتف دون أن أطمئن.. شيء في صدري يحيك ويضخم قلقي.. آخذه من على الأريكة ثانية، وأعاود الاتصال.. لأتلقى رفضه لي. هذه المرة رفض المكالمة، وأغلق الخط دون رد.. أشعر بصهد يشع من رأسي، لكن ليس الموقف للغضب، بل يجب أن أعرف ماذا يحدث..

أحاول أن أصفي ذهني لإيجاد وسيلة، دون أن أثير زوبعة في البيت.. في هدوء، أذهب إلى أشرف، حيث يدخن البايب (البلوة اللي طلع لنا فيها جديد) في الشرفة، وأقف بجانبه، فيبتسم. سخيفة جدا ابتسامته.. وازدادت سخافة مع ذلك البايب المتدلي

من جانب فمه. كدت أقول له: (شيل البزازة اللي في بؤك دي) لكن هناك الأهم.. فلأركز فيما جئته لأجله..

-ما كلمتش أبوك قريب؟

عقد حاجبيه يتذكر، قبل أن يرد:

-لأ.. يمكن من ساعة ما جبت لك الدكتور من كام شهر.

بكل ما ملكت من مقدرة على رسم التهكم كان وجهي..

-لا والله فيك الخير.

"اللي ماعندوش ريحة الدم بيضحك.. "

-ما علينا.. أنا بتصل مش بيرد.. بقالي شهور ما اعرفش عنه أي حاجة وبدأت أقلق.

ببساطة يرد، وهو ينفخ التبغ..

-يا ستي لو في حاجة كان قال ولللا مراته كانت قالت.

خنقني.. عديم الإحساس كبير حسرتي..

-وهي مراته تعرفنا منين علشان تكلمنا؟ أنا مالي ومالها أنا بتكلم على أبوك.

شرد قليلا يتابع شيئا ما من الشرفة، فالتفت لأرى، وقد تمنيت أن تكون فتاة، لكن خيب ظني، كان ذلك الصبي، الذي يحمل أقفاص الخبز الكثيرة فوق رأسه،ويقود دراجته بيد واحدة

هو ما جذب نظره.. همهم..

-اللي عايز حاجة بيعملها صحيح.. مش سهل اللي هو عامله دا أبدًا.. التفت إليّ، كانما فطن إلى انتظاري، واستأنف الحديث..

-يا أمي يا حبيبتي ما لو حصل له حاجة مش هيقدر يتكلم ويبقى هي أكيد هتتكلم.

قلت..

-هو ما فيش مرة أقفشك بتبص على بنت عجبتك!

أخذ البايب من فمه، وضحك وهو يهز رأيه أن أبدًا لن يحدث. سألني ليغير الكلام:

-أنت محتاجة منه حاجة وللا بس بتطمني؟

نظرت له متشككة..

-أنت كلمتها قبل كده؟

ببساطة، وكأنه شيء طبيعي قال:

-آه كلمته مرة وهي اللي ردت علشان كان في المستشفى ممنوع الموبايل يبقى معاه.. ست ظريفة عملية.

أنا متأكدة أن وجهي أصبح بلون قميصه الأحمر هذا، وأنا أسمع ما يحكي، ولكنه لم يلقِ بالاً..

–سألتها عن الهجرة.. أصلها ممرضة هناك وممكن تسأل لي على فرص دراسة وشغل.

لم أملك ردًا عليه.. وقفت أتأمل الشارع المزدحم، والناس المتخبطة، والسيارات المرصوصة كأفعى طويلة لها ألف لون.. من بعيد لمحت صيدلية دكتور إدريس، فابتسمت.. تنهدت، وقلت له:

–طيب اطلبها اتطمن على أبوك.. قل لها حتى لو مات أهو لها نصيب في ورثه بس تقول لنا.

نزع البايب من فمه، ونظر لي شذرًا.. أشحت بيدي، وتركته، وذهبت لألبس عباءتي وأنزل، علني أجد الدواء، الذي شح مؤخرًا، وما عندي منه شارف النفاد.

(٣٣)

في ذلك المساء، دخلت إليها، وجلست إلى جوارها، وهي تشرب كوب الشاي، تستدفيء به..

-ماما!

رفعت عيناها إليّ والكوب على فمها، فأكملت..

-أنا قلقانة على بابا..

أنزلت الكوب، وردت في جديّة..

-ليه؟

ترددت لحظات، ثم قلت بسرعة، قبل أن أتراجع..

-أصل جدو بقاله كتير ما جاش.

كادت تفلت الكوب من يدها، واحمر وجهها.. جاهدت للتماسك، وحاولت الكلام مرتين، فلم يخرج صوتها.. تنحنحت، وتريثت برهة، ثم سألتني في هدوء:

-قصدك ايه جدك ماجاش؟

لم يكن لدي ما يحتمل اللَوَع، فقلت بثبات:

-ماما أنا عارفة أنه كان بييجي كتير.. بس الصبيان مش

بيشوفوه ما اعرفش ليه بصراحة.. أنا كنت باشوفه زيك بالظبط.. بس اللي فهمته أنه كلمك.. أنا ما كلمنيش.

ابتسمت، وارتاحت قسماتها، كأنها اطمأنت أنا ليست متوهمة أو مجنونة. ابتسمت، وربت على فخذها..

-حتى نصر أحيانا بيحس بيه.. أحيانا يقول لي هو حد عدا للبلكونة وللا للحمام أقول له لأ.. بس ما شافوش وما حاولتش أقول له..

تنهدت، وهمست:

-أحسن.

-بس أنا قلقانة.. هو ابتدا ييجي كتير لما بابا عيي ودلوقت بطل ييجي.. تفتكري....؟

لم أستطع أن أكمل.. لم أكن حزينة بمعنى الكلمة، ولكن هناك على أي حال رابطة بيني وبين ذلك الرجل تستدعي القلق.. طال صمتها، ثم أخذت ترتشف الشاي شاردةً.. ثم هزت رأسها ونظرت إليّ..

-هنعرف.. أخوكِ بيتصل بمراته علشان يحصل أبوه على هناك. وما دام فيها مصلحة له هيكلمها تاني ويفضل وراها وهنعرف.

نظرت إليها طويلا.. كانت صورتها تتغير أمام عينيّ، فلم أكن

أرى أمامي امرأة حية؛ بل تمثال من قطع متكسرة هشة من زجاج، تتناثر، ثم تتجمَّع لتشكل صورة امرأة ضائعة الملامح. سألتها:

– أنت زعلانة انه اتجوز؟

ضحكت بلا صوت مستخفة، فأردفت..

– طيب هتزعلي لو طلع مات؟

فتحت عينيها عن آخرهما متفاجئة بسؤالي.. همت بالرد، ثم سكتت.. عادت فابتسمت ثانية في أسى رهيب، مزقتني أكثر مما لو كانت بكت..

– بيقولوا الـــ عشرة.. ما تهونش.

تمنيت أن احتضنها.. لكنني لم أستطع. منذ سنوات طويلة لم تعد المشاعر بيننا بالسلاسة التي تسمح بأن أفعل.. متى كانت آخر قبلة منحتها لهذا الخد، أو مُنِحتها منها؟.. لا أذكر أن ذلك حدث منذ فرحتها بنتيجة الثانوية العامة وهي معي بفناء المدرسة.. هل من دواعي اكتمال الأبناء أن يبتعدوا عن أمهاتهم؟.. لا أدري، ولكنه حدث وقضي الأمر.

كانت شاردة تماما، فتركتها لأفكارها، وهممت بالخروج؛ لكنني تذكرت..

– أنتِ عرفتِ أن منال هتتجوز الشهر الجاي؟

هزت رأسها بالإيجاب، فقلت:

– بس كده مستعجلين قوي دي ما لحقتش تعرفه وتشوف إن كان مناسب بجد..

نظرت ليّ كالمشفقة عليّ من سذاجتي وقالت:

– يا بنتي ما هي عارفاه من قبل الخطوبة بكام شهر تانيين.. مش أخو صاحبتها وكانت بتزورهم.

رفعت حاجبًا واحدًا مستغربة، فابتسمت أخيرًا..

– اجري يابت ذاكري للماجستير بتاعك وبطلي الحركة دي أحسن بتبقي شبه عادل إمام.

(٣٤)

– نصر!

التفت إلى صوتها. كانت أول مرة أقابلها، منذ خطوبتها، دون أن يكون معها أحد ويكون الكلام رسميا، كتحية جيرة عابرة.

ابتسمت لها في ود، فلم أعد أفكر كثيرًا في تلك الذكرى.. يقولون: ما يأتي سريعا يذهب سريعا.. وأعتقد هذا ما حدث.. أو كنت أعتقد!

جرت على أطراف أصابعها إليّ.. كان الوقت متأخرًا، والليل هادئًا، والسلم ساكنًا تماما. أمسكت يدي، التي أستند بها إلى الدرابزين، وتلاقت أعيننا في صمت لفترة، قبل أن أستدير، وأنزل الدرجات الثلاثة، وأقف أمامها، وأهم بجذبها إلى صدري.. لكنها منعتني بكفها على صدري، هزت رأسها أن لا، فلم أتمالك نفسي..

– أمال عايزة ايه يابنت الـــ...

أسكتتني بلمسة أصابعها على شفتي..

– هتشتمني بالأب والأم يا نصر؟!

احمر وجهي، وأحسست أن صدري أسوأ حالا من قِدرة فول

مكبوسة.. سألتها من بين أسناني:

– عايزة ايه يا منال؟ مش هتتجوزي الشهر الجاي برضه وللا عين في الجنة وعين في النار؟

أهنتها؟ ربما.. لكنها الحقيقة ما قلت، لا تجني فيها، ولا ادعاء. قالت ودمعة تفر من عنينها الرائعتين:

– ما هي أمي سألت أمك يا نصر وقالت لها شوفي مصلحة بنتك. هو أنا يعني وافقت إلا بعد ما أمك قالت كده.

كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن أمي لها يد فيما حدث. حاولت أن أفهم اكثر.. هاجمتها..

– وأمي كان ايش عرفها أن بيننا حاجة يا منال؟ أمك هتقول لها جاي لبنتي العريس اللي ماحصلش منتظرة ردها يكون ايه؟

احتدت، وخرج صوتها مبحوحًا، وهي تحاول أن تحافظ على انخفاضه..

– لا بقى.. أمي قالت لها إن في بيننا كلام وأنك واعدني نتجوز بعد ما تتخرج وتفتح المحل بتاعك.

كنت أشعر بالغيظ منهن كلهن. أمي، التي لم تحاول أن تناقشني في الأمر وهي تسمع أني أحب تلك الفتاة، بل وتشجعها على التخلي عني، وأم منال، التي تجاهلتني وكلمت أمي في

الأمر كما لو كنت (ابن مَرَة). ومنال، وتلك مصيبتها هي الأكبر.. أمسكت ذراعها بشدة آلمتها، وأنا أتكلم من بين أسناني في غيظ..

– وأمك ايه اللي عرفها بالكلام ده؟ ما احنا متفقين يفضل بيننا لحد ما أجهز.. وما كلمتنيش أنتِ ليه بدل الزفة دي كلها؟

كانت متألمة، وتحاول نزع ذراعها مني، لكنني لم أتركها. قالت:

– ما هو كان لازم أرد على أمي بسبب لرفضي عريس زي دا. وهي بتحبك وقلت لو قلت لها هتفضلك عليه.. سيب دراعي وجعتني!

تركتها.. كان صوتها قد علا بعض الشيء، فكان لابد أن أنهي الحديث، قبل أن يفطن إلينا أحد الجيران، وبئس الجيرة جدتي وأخوالي. زفرت..

– عموما أنتِ اخترتِ يا بنت الناس. ابعدي عن سكتي وشوفي حالك وبلاش تطلعي لي في الضلمة كده انت محسوبة عالراجل اللي مخطوبه له وأنا ما اضمنش نفسي.

كنت متوقعا أن تتركني، وتجري دامعة إلى شقتهم، وتغلق الباب وراءها، في مشهد من فيلم قديم سخيف. لكنها ابتسمت ابتسامة واسعة، بكل ملامح وجهها، ومالت برأسها، تقول في

دلال..

- مش ضامن نفسك؟.. يعني بتحبني؟.. طيب على فكرة أنا كمان بحبك قوي.

قبل أن أرد، كانت قد عادت لشقتها على أطراف أصابعها، كطيف جرى دون أن أدركه.

أغلقت الباب في هدوء، وتركتني أقف مشدوها. ووجدتني أبتسم سعيدًا، ناسيًا أي تفاصيل أخرى. أسندت ظهري إلى درابزين السلم، وأغمضت عيني، وبقى المشهد يحتويني أنا وهي فقط، وابتسامتها تشرق، وكلماتها تعدني بما لا أدريه، لكنني بالتأكيد أعشقه.. وانعدم العالم كله في عقلي عدانا.

أفقت على صوت سيارة تركن، فالتفت، ووجدت أشرف قد عاد من عيادته. أسرعت ألف لأرتقي بضع درجات.لم أعرف هل رآني أم لا، لكن ليس أمامي سوى انتظاره، فلو لم أفعل، سأثير شكه – هذا إن كان يفكر في أي شيء خارج محيط مصالحه.

دخل إلى العمارة، ورآني، فتنهد بعمق، وقال:

- كويس أني لقيتك قبل ما أطلع. في خبر وحش مش عارف يتقال لهم ازاي.

يا ساتر.. ألأنك تحمل خبرًا سيئا، فـ (كويس أنك لقيتني)؟!.. وجدت نفسي أقول في تلقائية، لم أستطع تداركها..

-ايه يا وش الخير ما هو هييجي لي من وراك خبر عدل يعني!

نظر إليّ في غل، لكنه كظم غيظه..

-الموضوع مش محتمل قلة أدبك.. من الآخر أبوك مات.

بحلقت فيه غير مستوعب ما قال.. سألته:

-أبويا مين؟

علا صوته في غيظ.. كان واضحا جدا أنه مهزوز، ولأول مرة أشعر نحوه بشفقة، بل ربما أيضا بواجب الأخوة.. قال:

-أبوك حتى لو مش عاجبك يا زفت.

لم تضايقني كلمة "زفت".. كنت أنظر في عينيه، مذهولا من تلك الدمعة الحائرة فيهما، يأبى نزولها، وتأبى أن تتوارى.

أمسكت كتفه، وقلت في جدٍ:

-عيط يا أشرف. أنت تعبان عيط.

أزاح يدي عن كتفه دون عنف، وسبقني صاعدًا في تباطؤ، وكلانا لا ندري ما قد نفعله.

(٣٥)

– واتدفن هناك؟

لم يرد عليها أحد.. أكملت، تكلم لا أحد..

–وهو يعني هتفرق ايه.. بعيد حي وبعيد ميت.. وأعرف بعد ٣ شهور ان جوزي مات!

ضحِكَت ضحكة قصيرة، وهزت رأسها، وقامت من جلستها، متجهة للمطبخ..

–قوموا غيروا يللا على ما احضر العشا.. خِلْصِت خلاص حتى وقت العزا فات.

توقفت لحظة، والتفتت إلى أشرف..

–هي مرات أبوك اسمها ايه؟

–نيلي

–ياختي عالدلع.. طيب بعد العشا هديلك أوراق أبوك اللي عندي.. تاخدها لمحامي يحسب ميراثها هيبقى ايه علشان نبعتهولها.

استدركت..

–بس الشقة دي برة الميراث دي باسمي وماحدش له فيها

حاجة لا هي ولا انتم.. وقبل ما حد يفتح بؤه أبوكم كاتبها لي مكافأة على خدمة أمه لحد ما ماتت.

لم ينطق أحدنا بكلمة.. عن نفسي، كنت أشعر بالانفصال عن كل ما يحدث.. تمنيت أن أترك البيت ومن فيه، وأنزل إلى الشارع في هدوء الليل والشتاء لأتنفس.. "مخنووووووقة" كنت أقولها لنفسي، ولا أتميز بها عن الباقين، فالكل بالتأكيد يشعر بها، وإن اختلفت أسبابنا..

أمي تروح وتجئ بالأطباق.. وجهها جامد، كما هو قبل أن تعرف الخبر.. أركز فيه أكثر، فلا أقرأ أي تعبير على الإطلاق، فأخاف..

أنظر إلى أخويّ، وأبتسم ابتسامة سنيمائية، وأقول:

-حسنا يا أخواني.. لقد انفرط العقد!

ينظران إليّ ذاهلين، فيعلوا صوتيَ مختنقا، دون أن أقصد..

-انتشرووووووووا

يهم أشرف بزجري، فتفاجئه أمي بضحكتها وتعليقها..

-ايوة ياختي انتشروا.. اسم الله كان هو اللي لامّكم!

تجلس إلى السفرة، وتشير لنا، كما كانت تفعل أيام كنا بالابتدائي..

-قوموا كلوا يللا..

تشرد برهة، وتهمس..

-يا عالِم هنتلم عالأكل تاني وللا لأ!

لم يكن لديّ أي قابلية للطعام؛ لكن كلمتها الأخيرة حركتني كالمنومة إلى السفرة، وهما مثلي، وجلسنا لا نسمع سوى صوت الملاعق، وأحيانا صوت أحدنا يبتلع في صعوبة، والكل شارد في الآتي..

في تلك اللحظة، لم أقاوم إحساسي بالاحتياج حد الظمأ لضياء، وقررت أن أهاتفه بعد العشاء.

تركتهم وقد اصطفوا على أريكة واحدة متلاصقين – وربما لا يدركون تلاصقهم – أمام مسرحية قديمة حفظنا كل كلمة فيها منذ زمن، وربما كانوا لا يعون كلمة واحدة منها. دخلت حجرتي، وأغلقت الباب، وواربت الشباك، أقف في الهواء البارد الذي يتسرب منه، دون أن يكشفني أحد الجيران. اتصلت برقمه، فلم يرد. تمنيت سيجارة في يدي، رغم أني لم أدخنها قبلا.. انتظرت قليلا، ثم عاودت الاتصال في إلحاح.

رد عليّ أخيرًا بصوت يملؤه النعاس، فإذا بصوتي يحتبس، وأسمعه يردد السلام، حتى كاد ينهي الاتصال، فخرج صوتي..

- استنى..

– في ايه يا أسما؟ مال صوتك؟ أنت تعبانة؟

جملة واحدة تقيأتها، بكل ما في داخلي من رفض لتصديقها..

– بابا مات.

لم يرد في الحال، ولم أنتظر رده. أنهيت الاتصال، وأغلقت الهاتف، وبكيت أخيرًا!

(٣٦)

كلمة انبهار هي أقل ما يمكن التعبير به عن حالتي وأنا أمشي في الشوارع هنا.. وأنا أتعامل مع تلك المؤسسات الطبية لتقديم أوراقي.. وأنا أخالص نيلي في نصيبها من تركة أبي. لا أصدق أن كل الأمور تمت في سلاسة، وأخيرًا أنا هنا. صحيح أنها زيارة فقط، ولكن من يدري.. أنا متفائل، ونيلي تشجعني كثيرًا.

للأسف، أنا لست متأكدًا أنها ستظل على تشجيعها لي. عرضت عليّ أن أحل محل أبي، وأن ذلك وضع عمليّ جدًا، وسيفيدني، حيث إنها على وشك الحصول على الجنسية. شرحت لها في هدوء أن هذا حرام في الإسلام. هي على ما يبدو ليست مسيحية أيضًا، بل تكاد لا تعرف عن الأديان شيئا؛ رغم إنها شخصية جميلة، عذرت أبي أن أحبها وفر معها إلى هنا.

في الحقيقة، شدتني نيلي كثيرًا.. ربما لأول مرة تجذبني واحدة من بنات حواء. عملية جدًا، منشغلة بمستقبلها، ولا تنسى البحث عن متعتها، وجريئة، لدرجة أن تعرض عليّ الزواج، مصرحةً بأنني أعجبها.. نموذج أحب أن أكونه أنا. رغم إنها ليست جميلة – عادية كذلك ليست قبيحة – إلا أن انجذابي لها يجعلني حذرًا، ويلح عليّ أن أجد مكانًا غير شقتها للإقامة. أعود

فأفضل توفير المال، فإن حدث، وقبلت في أحد المؤسسات الطبية، التي تقدمت إليها بأوراقي، فسأحتاج لبعض المصاريف. أجادل نفسي بأن الأمر لا يتعدى أسبوعين آخرين، وأعود من حيث أتيت.

لم يكن الوقت كله تخليص مصالح وإجراءات وأوراق؛ بل كنت أخرج، وأستكشف الحياة والناس، وأستمتع برؤية وجوه منوعة، لا تحمل شبها واحدًا، ويطل العزم منها. بالتأكيد لم أفتقد ذلك البؤس، الذي لابد أن يقابلني في الوجوه في شوارع مصر. دعتني نيلي كذلك لبعض الأماكن، فمرة مطعم أسيوي، ومرة للسهر في ملهى. يومها عبرت لأول مرة عن إعجابها بي، إذ قبلت الدعوة، ورأتني أستمتع جادًا في سهرتنا.. قالت إنها مبهورة بعمليتي وعدم غلبة ابتئاسي لموت أبي على رغبتي في الحياة.

في مساء السبت، أتى بعض أصدقائها يزورونها. امرأة وشابان، قالت إنهم زملاؤها في العمل. كانوا فلبينيين مثلها، متحررين كثيرا على ما يبدو. أحدهم، ويدعى ماركو كان يكاد يغازلني صراحة. يقف أمامي، ثم يقترب مني كثيرًا، ويتكلم بسرعة بلغته الأم، فلا أفهم ما يقول. لكنني أحسست بأمرٍ يحيك في صدري، فاستأذنت في كياسة، وخرجت إلى الشرفة.

وقفت ناظرًا بعيدًا، أعطيهم ظهري، متجنبًا رؤيتهم. لكن أحسست بالبرد، فجلست على الكرسي الهزاز، أحاول

الاسترخاء، وأشعل غليوني. حينها سمعته يقول بصوت خفيض بالإنجليزية إن منظر الغليون يثيره جدا. أعتقد كان يتعمد أن أسمعه، وحاولت أن أتجاهل ذلك، خاصة إن الآخر - ويدعى روميو - بدا غاضبا، وكأن الغيرة تاكله!

كأي شخص في سني، ليس صغيرا أو أغر، أعرف أن تلك النماذج موجودة، وتعج بها مجتمعات العالم كله، سواء في الغرب أم الشرق أم في بلادنا، كله سواء. لكنها كانت المرة الأولى التي أكون فيها قريبا منهم، إلى درجة أن تحيطنا جدران شقة مغلقة..

يبدو أنني قلقت بالفعل، بل ربما هو الخوف حتى.. خاصة وقد لمحت تلك المرأة، التي تبدو كالزعيمة في جمعهم، تمسك ساعد نيلي بقوة، وتشير برأسها لي، وهي تسر إليها بما لم أسمعه.

هل نيلي هي الأخرى شاذة؟!.. كيف ذلك وقد عرضت عليّ الزواج؟.. لم أكن أفهم ما يحدث تماما، لكنني افتقدت الأمان بقية أيامي هناك.

كنا نتسكع على الكوبري، وقد تشابك كفانا.. أضغط يدها كأني أتمنى أن يلتحم الكفان، في تشبث أشك ألا يترك أثره على جلدها. كل بضع دقائق أتحسس بإصبعي تلك الدُبلة في إصبعها، وأحاول إخراجها منه، فتضغط أصابعها معا، لتمنعني. فأنظر إليها في شوق واحتياج..

-بحبك يا بت!

تبتسم ولا ترد، ولا حتى تلتفت إليّ. لكنني أحس يدها في يدي، تخبرني أنها مثلي تمامًا، تشتاق..

-هي أمك فين أُمال؟ خرجتِ ازاي؟

تهمس بلا تركيز، كأنها لا تريد الخروج من الحالة التي تعيشها..

-راحت تزور حما خالتي عايدة في القصر العيني. أصله شكله هيودع خلاص وكان راجل طيب.

لم أحب ذكر الموت الآن.. لا أحبه منذ موت أبي.. رغم أني لم أحزن لفقدان أبي!.. قلت..

-أنا مش مصدق أنك هتتجوزي..

تبتسم، فأضيف:

-وأنتِ كمان شكلك مش مصدقة. فكري يا بنت الناس كويس.

أوقفتها، ونظرت في عينيها لبرهة..

-فكري..

أيضًا لم ترد.. لم أفهم تعبير وجهها. أنا متأكد – أو شبه متأكد –أنها تحبني. لكنها لا تريد إلا أن تتم زيجتها!.. أحس بالضيق، فأقول وأنا أزفر:

-طيب يللا نروّح.

تنظر إليّ متفاجئة، ومتضايقة، حتى كادت عينها تدمع غيظًا. أسحب كفي من كفها، وأحيط خصرها بذراعي، فلا تمتنع، بل تميل قليلا بكتفها إلى صدري، متجاهلة ذلك الكهل، الذي شتمنا، قبل أن يتخطانا.

عدنا سائرين، لا نريد أن نصل.. حتى إذا دنونا من شارعنا، سبقتها ببضع خطوات. دلفت بعدي إلى العمارة، وأدخلت مفتاح الشقة في مكانه، ولفته مرتين، ثم شهقت فزعة، حين وجدتني أمسك يدها، وألف الأخيرة بسرعة، وأدفعها إلى الداخل، وأغلق الباب وراءنا معا.

نظرت إليّ بهلع، لكنني لم أتراجع. لم أكن أستطيع التراجع.. كنت أحتاجها بكل ذرة في روحي وجسدي معًا. هي أيضا كانت تحتاجني.. لم تصدني بغير كلمة "بلاش".. ثم لم ندرِ كيف مر كل هذا الوقت.

كان أجمل ما في الأمر أن دُبلتها أُلقيت أرضا، لم نعِ من منا ألقاها.. ولا ندري أين ذهبت.

(٣٨)

كنت أثرثر مع ضياء على الهاتف، حين أتت لتجلس بالكرسي المجاور، وهي تمسك صينية، فيها الأرز، تحركه بإصبعها باحترافية بالغة، لتلتقط كل ما هو غير الأرز الأبيض، وتضعه في ركن من صينيتها. بدأت أرد عليه باقتضاب، أو ببعض همهمات، وأشعر أنني افتقدت حرية الكلام، فأنهيت المكالمة، ونظرت نحوها صامتة، ريثما تبدأ في الحديث، الذي لابد قد أتت لأجله.

لم تتكلم، فشغلت التلفاز، وجلست أراقب تلك الناس تتحرك على شاشته، بينما ألغي الصوت، وأتابع بلا تركيز ولا فهم تقريبًا. بعد قرابة عشر دقائق، قالت:

- طنطك إيناس جايبه لي عريس.

"طنط" إيناس هذه جارة لنا في الشارع، لا أدري حتى في أي بناياته، ولم أصادفها من قبل؛ فقط أسمع اسمها أحيانا من قبيل "نازلة لطنطكم إيناس شوية" "آلو يا عروستنا ازيك انا طنطك إيناس ماما هنا؟".. إلخ إلخ. رددت بدون أن ألتفت إليها..

- سبق وقلت مش عايزة جواز وزفت. أنا هاخلص الماجستير وأسافر.

سكتت ولم تعلق. رمقتها بطرف عيني، فوجدت إصبعها ينقي

الأرز بسرعة في توتر واضح. هممت بالنهوض من مكاني، كي أغلق الباب في ذلك الحوار، حين انتبهت..

– ثواني!.. جايبالك؟ ده لكِ أنتِ يعني؟

لم ترد عليّ، وإن احمر وجهها، وتوقفت يدها بعيدا عن الأرز. ضحِكْتُ.. فازداد وجهها احمرارًا، ووضعت الصينية على منضدة صغيرة بجوارها. أحسست بفرحةٍ ما بها، وأنا أراها كبكرٍ خجولة.

– كميل كميل أنت بتتكسف!

عادت إلى رأسي فكرة..

– بس مش لسه حرام تتخطبي وجوزك ميت من مافيش شهرين كده؟

نظرت إليّ متهكمة..

– قصدك احنا عرفنا من شهرين.. هو مات داخلين في ٦ شهور أهوه.

لم أدرِ ماذا أقول لها.. أطرقت أفكر في سرعة.. هو حقها بالتأكيد. لم أستطع أن أغار لأبي.. أكاد أضحك لتفكيري أنه لو كان حيًا لما مانع هو نفسه ولا غار.. ولكن ماذا عن رد فعل أشرف ونصر؟ رفعت رأسي إليها لأسألها، فبادرتني بالإجابة، قبل أن أنطق..

- أنا مش هاقول لأشرف ونصر. لما أبقى أنا أقرر أبقى أبلغهم بقراري.. لو كنت هوافق.

أحسست بالذهول.. أول مرة أرى منها هذا الموقف المتحدي. يعجبني بالتأكيد، لكنني قلقة.. لا يهمني رأي أخوتي، ولكن يهمني كثيرًا أن تكون هي بقدر بالموقف. جدتي وأخوالي أيضًا لن يدعوا الأمر في يدها. منذ مات أبي، يحاولون التودد إليها وزيارتنا. هي لا ترحب بهم، ورسالتها واصلة لهم في وضوح؛ لكن في موضوع كهذا، وبحكم الاعتبارات الاجتماعية، سيكون لهم كلمتهم.. أهي حقًا بقدر موقفها أمام كل هؤلاء؟

شردت.. هل أنا بقدر موقفي من ضياء؟.. لا يحتاج الأمر موقف أمام جبهة واسعة، كتلك التي تقف أمي - ست البيت - أمامها. فقط موقفي أمام نفسي.. أنا متأكدة أني أحبه، أنه يحبني، أننا متوافقان في نواحٍ كثيرة.. وأرفضه. وقت أردت البكاء، اتصلت به وحده. صحيح أني أغلقت الهاتف، ولم أبكِ أمامه، لكنني لجأت له كي أستطيع البكاء. شهور قليلة وأنتهي من الماجستير، وإن تركته وسافرت، فسينقطع أمله بي بالتأكيد، وتنتهي القصة كلها.. ألن أندم يومًا على موقفي هذا؟.. ألح عليّ السؤال بشدة.. نظرت إلى أمي، وسألتها:

- مش هتندمي؟

قالت في بساطة أبهرتني:

- ماهيش آخر الدنيا يعني إن باظت وللا فشلت.

صح.. ليست آخر الدنيا إن فشلنا.. لكن هذه الحكمة تحتاج لقلب جرئ!

(٣٩)

القلق يأكلني وأنا في انتظارها.. تأخرت ربع ساعة فقط عن موعدنا، مرت عليّ كدهرٍ أبدي. هدأت كثيرًا حين رأيتها تأتي من بعيد مبتسمة، وتقبل عليّ في مرح. لابد أنها اطمأنت.

وقفت أستقبلها، وصرفت النادل اللزج طالبا كوبي شاي، دون أن أنتظر سؤالها عما تريد. استوقفته هي، قبل أن تصل إليّ، فألقت إليه ببعض كلمات وإيماءات، ثم أسرعت بخطوها مقبلة عليّ، حتى كاد وجهها يلامس وجهي، في جرأة لم أعتدها فيها. تراجعت خطوة، وجذبت يدها، لنجلس، وسبقتني هي في الكلام قائلة..

-وحشتني وحشتني وحشتني.. بالتلاتة.

ابتسمت، ثم سألتها، قبل أن تسترسل في مرحها..

-عملتِ ايه؟

تساءلت – حقيقة وليس اصطناعا – :

-عملت ايه في ايه؟

لم أكن أحتمل اللف والدوران، فسألتها مباشرة:

-اتطمنتِ على نفسك؟

قطبت جبينها برهة، ثم انبسط وجهها، وخفضت صوتها وهي تنظر لي بعمق..

– قلقان عليّ؟..

قبل أن أجيب، أكملت:

– طيب ما أنا قلت لك بلاش.. دلوقت راجع تقلق ليه بقى؟

أعتقد أن وجهي احمر، وأحسست أني لا أقبل طريقة معاملتها هذه. تداركت هي الأمر بسرعة، وقالت:

– عموما ما تقلقش.. أنت بس ركز في امتحاناتك اللي قربت دي.

– يعني ايه ما اقلقش؟.. أنا مش متأكد احنا وصلنا لفين.

تنهدت..

– ما تشيلش هم أنت بس.. عارف أنا نفسي أجيب تقدير السنة دي.. وكل سنة.. وابقى معيدة في الكلية و..

قاطعتها..

– منال.. هو في ايه؟ أنت اتطمنتِ وبتلعبي بأعصابي وللا خايفة وبتغيري الموضوع؟!

أسندت ظهرها إلى الكرسي، وسكتت لبعض الوقت وهي

تنظر لَيّ مبتسمة. كدت أصيح في وجهها، لولا أن ضمت شفتيها وحاجبيها محذرة. قبل أن ألتفت، كان النادل يضع الشاي على المنضدة، ومعه قطعتي جاتوه. نظرت إليها، فقالت بدلال لذيذ:

– كان نفسي فيه.

غلبتني القفشة، فرددت:

– لا تكوني بتتوحمي يا بت.

ضحكنا معا، وكان الصبي قد ابتعد، فأمسكت يدها، وتساءلت بعيني دون كلام، فقالت في هدوء..

– ما تخافش يا نصر.. الوحيد اللي يهمني يكون شاهد أبي بنت هو أنت.. وأنت متأكد من ده وأنا مش عايزة حاجة تاني.

أخذتني الشهامة، فسارعت قائلا:

– وأنا متأكد منك ومش هسيبك أبدا.. كلها السنة الجاية، وعلى فكرة ممكن ابتدي أدور على محل من دلوقت بفلوس ميراثي.

قلبت شفتيها، وأطرقت..

– أنا مش متأكدة أني هاكون من نصيبك يا نصر.. بس أنا متأكدة قوي أني بحبك قوي.

ضغطت يدها بين كفيّ، وقلت:

– وأنا جدع قوي يا منال وبكرة تعرفي دا كويس.

– أنا عارفة يا نصر.. بس أنا فرحي الشهر الجاي أنت نسيت؟

لم أفهمها أبدا.. دخلنا في حوار طويل، لم يكن فيه أكثر مما فات. أنا أتكلم بوضوح، وهي تلوِّعني، ولا أصل معها لمرسى. "ملعون أبو صنف الحريم كله يا شيخة جننتِ أمي"..

تأخر الوقت، واضطررنا للقيام. هذه المرة سبقتني هي بعدة خطوات عند شارعنا، ودخلت العمارة قبلي. ظننته حذرا منها بعد ما حدث المرة الماضية، لكنني فوجئت أن وجدتها في انتظاري. ترددت لبرهة، ثم هممت أن أصعد مباشرة وأتجاهلها تأديبًا لها، لكنني أمام تلك النظرة في عينيها لم أستطع. اقتربت منها، فإذا بها تجذبني إلى شقتها في غنج.

(٤٠)

ظلت تزغرد وهي تحتضنني، وأنا مستمتع بوهج حبها يدفئني، وينزع مني تعبي ومخاوفي. أول مرة أشعر أني بحاجة لحضنها هكذا، وأول مرة أسمح لنفسي بالبكاء إن أرادت، ولكنها خذلتني ولم ترد. بكت أمي بدلا مني، بكت كثيرًا، لا أدري ما يبكيها هكذا. ربما ما اختزنته ولم تبكه منذ وفاة أبي يعلن قليلا عن نفسه الآن.

– آاااه يا أمي وحشتيني ووحشني البيت والدفا..

التفت إلى أختي، وقلت ضاحكًا..

– وحتى برودة دمك يا أسماء.. وقرف الواد نصر.

مطت شفتيها تستسخفني، ولكنها إذ وجدتني أضحك، ضحكت، وقامت إليّ تحتضنني في وقار وتقول:

– حمد الله عالسلامة يا أشرف. والله كنا مرتاحين من غلاستك.. بس برضه كنت سايب فراغ.

ربتُّ على كتفها، وقبلت رأسها، وهي ذاهلة تهز رأسها تساؤلا. تجاهلت تساؤلها، وسألتهم أنا تلك الأسئلة العامة عن أحوالهم، وأخرجت لأمي عطرًا أتيتها به هدية، فانزلق لسان أسماء تعلق:

- أحلى هدية للعروسة.. في وقتها دي.

بالطبع لفتت نظري كلمتها، وقطبت جبيني منتظرًا تفسيرًا للكلام، لكن كان واضحا مع نظرة أمي لها، أنها لن تنطق أبدًا. تجاهلت الموقف، وأعطيت أسماء كتابا طبيًا حديثا، فصفَّرت سعيدة به، وأخذته، واتكأت على الأريكة تتصفحه. التفت إلى أمي، وبدأنا حديثا، لم ينته حتى ساعات الصباح الأولى، رغم ساعات السفر الثماني عشر وإرهاقها.

أنهيت الحكاية منذ سفري وحتى عودتي.. تنهدت أخيرًا وقالت..

- يعني الست كويسة الحمد لله.. بس ما أسلمتش؟

- لا يا أمي ما اعتقدش خالص. بس دا ما يمنعش أنها شخصية كويسة وساعدتني بقلب بصراحة.

لم أقل لها بالطبع عن عرضها الزواج مني. كانت تريد أن تطمئن أن أبي لم يهان في غربته وموته، وأن تلك السيدة لم تستغله، وهذا ما كان بالفعل، فلم يكن من داع لتشويه صورة نيلي لديها، فهي ربما لن تستوعب اختلاف البيئات.

- زرت أبوك؟

سكت وقد أحسست بوجهي يشع صهدًا، لم أدرِ كيف فاتني ذلك!.. أعفتني من الرد، واستدركت:

– بس أنت راجع مش زي ما رحت.

فاجأتني..لم أكن أتخيل أن نفسي مكشوفة لها إلى هذه الدرجة، لكن لم يكن لديّ استعداد للكلام في الأمر، فتصنعت عدم الفهم، وسألتها عما تعني. تجاهلت سؤالي، وسألتني..

– أنت لقيت الدراسة أو الشغل اللي كنت رايح عشانه؟

– آه.. في فرص كتير قدمت فيها ولسه مستني رد أي حتة منهم.

نظرت إليّ بنظرة مخترقة، وبابتسامة جانبية قالت:

– شكلك مش هتسافر يا أشرف.

قبل أن أعترض، أكملت..

– الأيام بيننا يا دكتور.. في حاجة أنت ماحكيتهاليش. بس براحتك.. ششش الكدب حرام.. اسكت وما تقولش ما حصلش.

قامت، ولم تدع لي فرصة للكذب.. هذا أفضل. دخلت إلى حجرتها لتنام، وضبطت أنا منبه هاتفي، كي أستيقظ بعد ثلاث ساعات، لأدرك عماد في عيادته. معترفا أنني أحتاجه بشدة.

(٤١)

– مساء الفل يا دكتور إدريس.

قام يحييني، ويمد يده مصافحا في ود..

– ايه يا هانم فينك؟ كل حين ومين أما نشوفك.

ملت إليه أسر بالكلام..

– أقول لك الحق؟ من ساعة جوزي ما مات قللت الدوا قوي وماعدتش بحتاجه زي الأول.

تهلل وجهه في صدق..

– والله كويس يا حاجة أنا كنت بدأت أخاف عليكِ.

أجمل ما فيه أنه ليس فضوليًا، يأخذ ما أقول، ولا يسأل عما وراءه. ضحكت..

– حاجة!.. من هانم لحاجة؟.. ايه يا دكتور هم اللي بيدمنوا الدوا بس اللي هوانم وللا ايه؟

ضحك وأشرق وجهه..

– طيب والله حاجة أحلى.. حد طايل يحج في الزمن الصعب ده.

استأذنت منه، وصعدت إلى إيناس في البناية فوق الصيدلية. كانت قد كلمتني بالصبح، وأكدت عليّ زيارتها الليلة. استحلفتها ألا يكون في الأمر لقاء مدبر، فأقسمت أنها لم تدبر شيئًا، ولكنها تحتاج استشارتي في أمر هام يخصها.

بالطبع، وكما توقعت، كان هناك يجلس مع زوجها في الصالون، أراهما من بابه الذي تركاه مفتوحًا، فوقفت عند باب الشقة آبية الدخول..

– عيب بقى الراجل يقول ايه.. ما تبقيش عيلة.

قلت في غضب مكتوم..

– دا أنتِ حلفتِ يا إيناس!.. عيب يا شيخة في سننا دا.

– طيب ما تقوليش سننا بس.. وبعدين مانا ماكدبتش.. دا جوزي اللي دبر الحدوتة كلها مش أنا.

جذبتني لأدخل..

– يللا يا شيخة بقى ما تبقيش غلسة كده.

دخلت أخيرا، وأصررت أن أجلس على أقرب أريكة بالصالة، ولا أدخل إليهم في الصالون. حاولت بإلحاح، ثم خرج إلينا زوجها يسألنا لماذا لم ندخل، فعاجلته أنا بالرد..

– شوية شوية هتقولوا لي ادخلي قدمي له القهوة وللا

الشربات.. أنا مش صغيرة لكدا معلش.

تغيّر وجهه، ولم يرد، وعاد إلى صديقه، بينما غضبت هي لزوجها..

– يعني دي جزاته برضه يصح كدا وأنا بس قاعدة أقول له دي أم الذوق كله؟

هممت بالرد، ولكنهما خرجا معًا من الصالون في هذه اللحظة. ارتبكت.. لم أتوقع في نفسي ذلك الارتباك حين مد يده يسلم، وإيناس تقوم بواجب التعارف التقليدي، المشمول ببعض المديح للطرفين. جلس بجواري على نفس الأريكة، تاركًا مسافة تسمح له بالالتفاف نحوي. مضى يتكلم، ويفتح حواراتٍ كثيرةٍ، وأنا أرد باقتضاب، محاولة أن أخفي أكثر مما أعلن عن نفسي. سكت قليلا، ثم نظر إليّ مبتسمًا..

– هو حضرتك غير أم أشرف اسمك ايه؟

فاجأني السؤال، لدرجة أنني استقبلته كإهانة، هممت بتقريعه عليها وترك المجلس. نظرت نحو إيناس، فوجدتها بين المفاجأة والابتسام.. بدت وقد أحست بما أنا فيه، فقالت:

– طيب تخيلي أنا نفسي ما اعرفش غير أنك أم أشرف وبس على طول السنين اللي عرفنا بعض فيها!.. اللي يسمع كده ما يتخيلش أنك خريجة جامعة وكنتِ موقفة مكتب بحاله

على رجل!

شردت.. كان المرحوم لا يناديني إلا بهذا الاسم، حتى ما عدت أستخدم غيره. لم يقدمني مرة بأنني "مدام نعيم".. ولكنها حقيقة الأمر، لم يخطئ، فلم أكن أبدًا إلا أم أشرف وأسماء ونصر. الآن مات نعيم، ولم أعد "مدام نعيم".. أفقت من شرودي، لأجدهم صامتين، جميعهم ينظرون إليّ، محترمين حالة الشجن التي بدت على وجهي..

– نادية عبد الله.. ليسانس حقوق.. شئون قانونية في مديرية الصحة.

...

لم أدر كيف انتهى اللقاء، لكنني لم أكن قلقة كما كنت قبله. مضيت أتمشى في الشارع، وأقف أمام المحلات، أتأمل كيف تغيرت الملابس كثيرًا. أكانت أجمل في السابق؟.. لا أدري، هي مختلفة وفقط.

فتحت كيس نقودي، فوجدت معي ما يكفي لأن أشتري شيئا جديدًا.. أشعر بالملل من تلك العباءات، وارد الخليج، التي ألبسها منذ سنوات طوال مجاملة لذوق نعيم، أو ربما بحثا عنه فيها.. بعض التجديد قد ينعش. استوقفت سيارة أجرة، وركبت..

– وسط البلد يا اسطى..

-فين يعني في وسط البلد؟

قالها في هجومية، أثارت تحفزي..

-لما نبقى نوصل التحرير هابقى أقول لك تكمل على فين.

التفت إليّ بابتسامة هازئة..

-لا هو أنتِ مش من البلد دي ولا التليفزيون ما دخلش بيتكم يا حاجة؟

كدت أسبه.. كيف سمح لنفسه بالحديث بتلك الجرأة، لكنه، وبجرأة أشد، مد يده، وفتح باب السيارة المجاور لي، وقال بنبرة ضجرة..

-انزلي يا حاجة مش ناقصين بلاويكم.. البلد والعة والتحرير مليان بشر ومظاهرات وأنت رايقة ومش دريانة.

قلت في ذهول:

-البلد والعة!

قبل أن يرد، أشرت له أن اسكت، ونزلت من السيارة دون جدل، وأسرعت الخطو نحو البيت..

كان ثلاثتهم هناك أمام التلفاز، وأسماء تتحدث في هاتفها ودموعها تتساقط، وتقول:

-لأ أنا بس خايفة عليك يا ضيا.. طيب طمنني عليك أنا

سهرانة مش هانام..

لاحظت وصولي ونظرتي المندهشة لها، فقالت:

-طيب سلام دلوقت يا حبيبي ربنا معاك.

في ذهول سألتها..

-حبيبك؟!

نظرتُ لأخويها.. كدت أسب رجولتهما، فبادرني نصر..

-دا دكتور ضيا يا ماما.. هو في التحرير دلوقت مع المعتصمين.

لم أفهم شيئا. كانت أسماء تبكي ولا تستطيع شرحًا ولا كلامًا، فأفهمني أشرف ما يحدث في تبسيط مختصر. جلست إلى جوارهم، أنظر إلى الشاشة، لا أصدق ما عليها.

ساعات تمر، ولا تكاد عيني تطرف عن المتابعة. أخبار قليلة متقطعة تأتي بها فضائيات البلاد الأخرى، ومشهد مهيب في الميدان ينقلون صورته.. ثم ها هم يصلون على الأسفلت هناك!.. ولتندفع سيارات المطافئ بخراطيمها القوية تفرقهم!

وقفت.. أحسست بغضب يشعلني جمرة لهب.. صحت..

– نادية عبد الله.. ليسانس حقوق.. شئون قانونية.

التفت نصر وأسماء إليّ غير فاهمين ما أقول، أو ما علاقته بما

يحدث، بينما صحا أشرف من نومه على صوتي. كانوا ينظرون إليّ كأغبياء، فصحت في وجوههم..

– باصين لي كده ليه.. بصوا عالكفرة اللي بيرشوا اللي بيصلوا بالخراطيم.

أحسست كأن رأسي قد امتلأ دمًا، حتى كاد ينفجر، فهرولت إلى حجرتي، وأخرجت الدواء من الدرج.. وابتلعت أقراصًا أربعة، وهممت بالخامس، لولا أن سقط من يدي المرتعشة واختفى.

(٤٢)

" هو احنا ما عندناش دم وللا مش بنحس وللا ايه؟.. الناس طالع عينها في ايه واحنا في ايه"

نظرت إليها مستكينة إلى جواري، وكأنها ملكت الدنيا في حضنها، وأغمضت عينيها عليها.. ناديتها..

-منال!

في كسل حتى عن فتح عينيها ردت:

-ها؟

فاستفزتني أكثر..

-قومي يا بت بجد.

فتحت عينيها، وانتبهت لي..

-في ايه؟

-يا بت الناس طالع عينها في الشوارع وأمي مرابطة هناك وحتى أمك بتروح معاهم وبتودي أكل ومياه واحنا كل همنا هي تروح واحنا نجري عالسرير..

مطت شفتيها، ولم يعجبها ما أقول.. نظرت إلى وجهها بتركيز..

- تصدقي بالله أنتِ ما عندك دم!

قامت غاضبة تلملم نفسها، ولكزتني في صدري، فأوجعتني..

- الله ينكد عليك على فكرة.. أهو أنت اللي ماعندش دم. حد يبقى لسه عامل اللي عملته ويتكلم في السياسة والهم التقيل دا؟

قمت ساحبا ملابسي، وأخذت ألبسها بسرعة، وأرد:

- تصدقي عندك حق.. انسي يا بت أبي أجيلك هنا تاني. أما تبقي تخلعي الدبلة دي من ايدك وتبطلي شغل الوطيان بتاعك ده ابقى أعرفك.

لم أنتظر ردها، وخرجت من شقتها، دون حتى أن أتلصص أولاً إن كان هناك أحد قد يلمحني خارجا. استنشقت الهواء إلى عمق صدري، وخرجت إلى الشارع، لا أكاد أرى أحدًا.

"مافيش فرق بينك وبين أشرف اللي بتسبه وتلعنه.. أنت كمان في نفسك وبس ولدرجة أوسخ منه. على الأقل هو في نفسه بيتعلم ويمكن يفيد حد.. واهو نزل التحرير مع أمي مرتين. أنت بقى ما صدقت المعهد أجازة وهمك تنام مع البت منال وبس.. جتك القرف"

مضيت أمشي، وأنظر إلى الأطفال يهتفون – أو يغنون – الشعب يريد إسقاط النظام. أنظر إلى الصبية الذين جمعوا ما

استطاعوا لتأمين مداخل الشارع. أنظر إلى الفرن الذي لم يتوقف عن العمل رغم كل هذه الظروف. أفزع على نفير متواصل لسيارة نصف نقل تقترب من المدخل، فيوسع لها الصبية الشارع، لتمر والأهالي يحيونهم، وأفهم من الكلمات المتناثرة أنهم شباب من أهل المنطقة، قد ذهبوا إلى سوق العبور، فأتوا بالخضر، لمنع الجشعين من زيادة الأسعار في السوق المجاور.

أبصق بعنف لاعنا منال.. ما الذي حدث لها؟ لم تكن هكذا أبدا، أنا أول من يشهد أنها كانت بريئة كطفلة. هل أنا من فعلت بها ذلك؟ لو أنني من فعلت فيجب أن أحمل قِربتي وإن خرّت فوق رأسي. وسواسي يبرئني أمام نفسي متمسكًا بحجة أنها هي من تتمسك بخطبتها لذلك الـــ (بأف).

أنتبه إلى صوت المعلم زكي يسب ويلعب "الصيع الضَيَّع اللي عاملين فيها رجالة ووقفوا حال البلد. ضحكت وألقيت عليه السلام.. أنا بالضبط مثل هذا الرجل أواري سوءتي بأقذار الآخرين. بعد أن ابتعدت عنه ببضعة أمتار، التفت ورائي وصحت..

– يا معلم زكي.. البلد حالها متنيل بنيلة من زمان يا معلم.

قطب حاجبيه مركزا في كلامي، لا يفهم أأؤيده أم أنتقده. ابتعدت أكثر.. وتركت نفسي لقدمي تأخذني حيث شاءت.

(٤٣)

لم أنقطع عن محادثتها على النت منذ عدت. أعتقد أنها ترمز لديّ للأمل الذي حلمت به طويلا بالهجرة والدراسة في مكان علمٍ حقيقي؛ لكن أشك كثيرًا أن أحمل لها ما هو أكثر. لو حكيت لعماد عنها، فربما يرى غير ذلك، ويتحفني بوجهة نظر غير مقبولة. هو يقول إن ما حدث ربما يكون حنينا مرضيًا للوطن، أو نوبات هلع، وسيظهر ذلك أكثر تحديدا في الفترة القادمة، حيث أسبوعين لا يكفيان للحكم الأكيد. أتمنى أن تكون الثانية.. لا أريد أن أفقد حلمي في الهجرة بصورة نهائية، خاصة وقد اقترب أملي في تحقيقه. ينصحني أن أؤجل الفكرة حتى أهدأ أكثر، لكنني، وقد تخطيت الثلاثين، لو أجلت، لا أضمن أن أمتلك الإقدام لأفعلها ثانية، إن ضيعتها هذه المرة.

أمي ترى أنني لن أسافر.. أخاف من حدسها جدًا. هي تريدني أن أستغل ميراثي في الزواج والاستقرار، وتقول إنني لو لم أفعل فسأتعب أكثر. نعم أخبرتها بمرضي النفسي، واستقبلت الخبر بهدوء شديد. هل هي تصل إلى الحد الذي تتفهم فيه معنى المرض النفسي وتأخذ الأمر دون ذلك الانطباع المتفشي، أم هي ارتاحت لاحتمال أن يمنعني ذلك عن السفر.. لا أستطيع تقييم هذه المرأة جيدًا.. كأنني لا أعرفها!

منذ بدأت الثورة وهي هناك، في التحرير. تعود لتستحم، وترتاح ليلة، ثم تذهب ثانية، وتخدمهم هناك، وتقول إنهم أولى بها منا!.. لا يضايقني ذلك، ولكنني أكتشف فيها إنسانا لا أعرفه، كان مختفيا طوال سنوات وعيي. تهتم كثيرًا، وتتوقع الكثير من تلك المظاهرات. أنا أعتقد أن تلك الثورة – إن سميت ثورة – ربما تغيِّر الأحوال هنا؛ ولكن ذلك رجع بعيد، الأقرب فائدة أنها ستوفر ليّ احترامًا أكبر عن السابق في المهجر.

نزول أمي، وحظر التجول، الذي منعني عن عيادتي مساءً أعطياني الفرصة لمزيد من الوقت على الإنترنت.. مجنونة نيلي لتجلس أمام كاميرا الحاسوب بتلك الملابس الفاضحة. تثير جنوني بتجاهلها للأمر تماما والكلام في أمور أبعد ما تكون عن الغواية، فلا أستطيع الاعتراض، فهي بالتأكيد حريتها الشخصية.. ولأظل أنا معلق العينين والحواس بجسدها، وشفتيها.

سألتها مرة عن فكرة الزواج، فانقلب وجهها، وبدت عليها العصبية، وقالت من بين أسنانها كلمة واحدة (كيرا) ثم غيّرت الموضوع. لم أفهم أهي شاذة ستتزوج من كيرا تلك، كما صاحبيها، أم إن كيرا تسيطر عليها بشكل ما، وتمنعها من الارتباط. أعتقد أنها الثانية، فالمأساة التي بدت على وجهها لا تنبئ برضًا بالأمر.

أسمع نداء أسماء، فأغلق المحادثة والحاسوب كله سريعا، وأرد

عليها بأني هنا. لم يكن الوقت مناسبا أبدًا، فنيلي كانت تقول إنها ستريني شيئًا لم أره من قبل. لكن لم يكن من بد، فإن لم أخرج إليها، قد تأتي هي، وقد تلمح نيلي.

تصيح من الخارج إنها تذكرتني بكوب شاي معها، فأبتسم وأقول سبحان مغير الأحوال.. تقاربنا كثيرًا في الفترة الأخيرة، أو كما صاغتها هي بالأمس: "تقدر تقول إننا اكتشفنا أخيرًا أننا أخوات".

يبدو أنه عهد الاستكشاف، فأنا أكتشف أمي، وأختي، وربما يقترب نصر إن حاولت معه.. كم أتمنى أن أعيد اكتشاف نفسي أيضًا، فأنا مجهد جدًا.

أخرج إلى أسماء، ونجلس معًا، نحتسي الشاي ونتابع شاشة التلفاز، ولا نكاد نتكلم بغير تعليقات قصيرة على الأحداث. شردت منها قليلا لأذهب بخيالي مع نيلي، التي اقتربت من قرار أن أحكي عنها لعماد أكثر. يجب أن أعترف بتغلغلها الخبيث في نفسي، وإدماني الحديث إليها واشتهاء صورها. كل ما يمكن أن يقوله أحد عن الحرام قلته لنفسي كثيرًا، ولكنها كالساحرة تمحوه بمجرد ظهور صورها أمامي.

أنتبه على صوت عمر سليمان، في رسالته القصيرة جدًا، التي يهدر الشارع بالصياح مع نهايتها. قفزنا فوق الكراسي، وتعانقنا،

وصرخنا، وضحكنا على منظر نصر وهو يخرج مسرعًا من غرفته، وقد أيقظته الضجة، متسائلا عما هنالك..

-اتنحى يا نصر.. اتنحى.

صاحت بها أسماء، وهي تقفز إليه، وتحتضنه هو الآخر، وهو يردد:

-مش معقول!.. مبارك بجبروته!.. مش معقول!

التفتت إليّ، وسألتني في بهجة..

-تنزل التحرير؟

رددت وأنا أشير لنصر..

-ننزل كلنا؟

ابتسم نصر، وأسرعنا كلٌ إلى حجرته، وفي دقائق كنا بالشارع معًا..

قالت أسماء:

-عارفين بقى لنا قد ايه ما نزلناش سوا؟

(٤٤)

أغلق المحادثة فجأة، ودون أي اعتذار. بالكاد قلت له إنني سأريه شيئا لم يره من قبل، فأغلق المحادثة من فوره. هل فهم مقصدي؟ لا أعتقد، فهو أغر إلى أقصى حد.

أقوم من مكاني، أدور حول نفسي كلبؤة تحتاج ذلك السبع المتغافل. أحتاج ذلك البليد.. ماله ليس كأبيه؟.. آه يا نعيم.. كنت شبقًا تريدني دائما ولم تتركني للجوع أبدًا. أكره كيرا.. أكرهها، فقد أحاطت بي وعزلتني تمامًا عن أي رجل. ليست جريرة أن أحتاج رجلاً!

والمصيبة الكبرى أنها تقترح، منذ أيام، أن تنتقل للعيش معي هنا " لا داعي لدفع إيجارين حبيبتي".. أفٍ لها.. أعرفها حين تقترح.. ذلك يعني أنها قررت أن تفعل، وما اقتراحها إلا تمهيد للتنفيذ الفعلي.. كيف أصدها؟..

متوترة أنا كثيرًا.. أفتح التلفاز، وآخذ في تغيير قنواته. أتوقف عند برنامج إخباري ينقل خبرًا عن ثورة مصر. لقد تنحى رئيسهم!.. أنا لا أتصل به عادة، لكن لأحاول الاتصال به بحجة تهنئته. أحاول مرات، ويظل هاتفه غير متاح. أهو يغلقه أم نزل مع المحتفلين في التحرير؟ أنفخ مغتاظة.. لو أني مكانه، لما أضعت

لحظات تاريخية كهذه بالتأكيد.

ساعات تمر وأنا بين الحاسوب والتلفاز.. ألقي بنفسي أمام الحاسوب، لأرى إن كان قد عاد، فلا أجده. وأخيرًا أشعر بالانهيار.. أصرخ.. "أحتاجك يا غبي.. أحتاج رجلاً.. الآن وليس بعد ساعة". يختار هاتفي هذه اللحظة ليصرخ، فأفزع. ألتقطه، فأجدها هي.. تتكلم في مرح، وتعلنني أنها أنهت عقد شقتها، وستنتقل معي مع بداية الشهر الجديد.. لم تأخذ موافقتي أبدًا.. أكره ذلك. تسألني:

-مالك حبيبتي نيلي؟ صوتك متوتر للغاية!

-لا شيء.. لا تقلقي بشأني، فأنا بخير.

-سكتت برهة، وعادت تسأل:

-هل آتي إليك؟ لا أدري.. أشعر أنك تحتاجينني بشكل خاص.

تحرك إصبعي على مفاتيح الحاسوب، وكتبت له: لقد تركتني في أسوأ وقت يمكن أن تفعل فيه.. لا تحاول الاتصال ثانية بأي وسيلة.. لا أريد أن أعرف عنك شيئا.

جاءني صوتها مناديًا..

-نيلي.. هل تسمعينني؟ هل آتيك الآن؟

ضغطت الإرسال، وندمت في نفس اللحظة. أغمضت عينيّ بقوة.. أقنع نفسي أنني لم أتسرع وأن الواقع يقول إنني لن أصمد لكل تلك الصراعات معا. كانت كيرا لا تزال تنادي على الهاتف بصوت به قلق حقيقي.. مضيت أردد لنفسي إنها تحبني وتريدني، حتى وإن كان ذلك لا يزال مقيتا في نفسي.. أخيرًا رددت بصوت أراحه اليأس..

– نعم كيرا.. أحتاجك بكل ما تتمنين احتياجي إليكِ.. أنتظرك.

أغلقت الهاتف وأنا أسمع صرخة فرحها، قمت لأصلح زينتي.. إن لم يعد من أمل في سواها، فعليّ أن أستمتع بما تتيحه دنياي.

(٤٥)

دخلَت إلى حجرتي وهي تلقي السلام، فرفعت عيني عن الكتاب، ورددت التحية. لم أكن أراها تقريبا، إذ مصباح المكتب أمامي وهي وراءه بعيدة، حيث جلست على حرف الفراش.

– تحبي أنوَّر لك النور؟

– لا يا بني أنت وشك منور جنب الأباجورة أنا شايفاك.. وأنت هتشوفني تعمل بيّ ايه..

لم تكن عادتها أن تحضر هنا، ولا أن تجلس على فراشي، فالأكيد أن هناك أمرًا مُلِحًّا تريد الحديث بشأنه. ظلت صامتة، فبدأت أعود للتركيز في كتابي. قررت أن تمر السنة بنجاح، ولن أتراجع عن قراري. ربما استفزني كلام منال عن رغبتها في أن تصبح معيدة بكليتها.. هي لن تكون شيئا، أنا واثق من ذلك، وسأكون أنا المدرس في المعهد، فليس ذلك صعبًا، ومجموعي في الثانوية يشهد. مع ذكرها دائما أفقد تركيزي إلى حد كبير، ولا أستوعب ما أقرأه. تأملت الكتاب كغريم ثقيل الظل.. لم أحب الكلام النظري أبدًا، بل يداي تعشقان الحرفية. قاطعني صوتها أخيرًا..

– مش ندمان يا بني على المعهد اللي اخترته دا؟

ابتسمت، وهززت رأسي أن لا، فجاء صوتها يدعو لي بالتوفيق والخير. كم أنا في حاجة لدعائك يا طيبة.

- بقالك مدة ما بتصليش يا نصر.

أحسست بالحرج، ولم أرد.. ماذا يمكنني أن أقول.. لم أكن يومًا ذلك الخاشع التقي، ولكنني كنت أصلي.. وإن فاتتني صلوات اليوم، كنت أقضيها مع العِشاء. الآن أستحي أن أقف على سجادة الصلاة وأنا أفعل ما أفعله مع منال. "ما هو بأنهي وش أقف قدام ربنا أصلي وأنا عارف أني راجع للوساخة دي تاني؟!"

- كنت عايزة أكلمك في حاجة يا نصر..

لم أفكر كثيرًا في ماهية الحاجة، وقلت..

- قولي يا أمي تحت أمرك!

- طيب ما تيجي جنبي شوية.. وللا عايز تذاكر؟

توجست.. كانت أسماء تسألني منذ أيام عن رأيي في حق هذه المرأة في الزواج، فهل للأمر علاقة؟. قمت من على المكتب، وذهبت إليها، وجلست إلى جوارها. أرى ملامحها الآن بدرجة ما. تبدو لي حزينة أو مهمومة، فأحطتها بذراعي، فلم تبعدني.. الموقف غريب على كلينا، ولكن ما المانع؟..

احترمت صمتها، وانتظرت أن تستجمع كلماتها، التي أتت لأجلها.. ولم تتأخر كثيرًا..

– زعلان من أمك يا نصر؟

استغربت سؤالها، ولم أجد مبررًا له، فرددت في الحال:

– ليه يا ست الكل ده أنتِ بلسم البيت..

– علشان ما خطبتلكش منال.

سحبت ذراعي متفاجئا.لم تنتظر، وأكملت..

– هي أختك حكت لك أن أمها جت لي وأنا قلت لها تقبل العريس؟

لم أكن أريد الكلام في هذه النقطة بالذات. لكن الآن يجب أن أجد ردًا محسوبًا، يعفيها من الألم وإحساس الذنب. أنا نفسي لست حزينًا. منال!.. لا زلت أحبها، لكن تعلقي بها طغى عليه الجسد. المشكلة الأساسية ليست أن أحبها أو لا، وإنما أنها فقدت في نفسي شيئا فلم تعد تصلح لصورة الزوجة.. تنهدت، وقلت:

– منال ما تنفعنيش يا ست الكل.. أنا مش زعلان عليها.

– منال كويسة يابني وشاطرة في بيتها.. بنت زي الفل يعني.. بس أنا كنت عايزاها تتمسك بك لو بتحبك بجد. أبوك كان لسه عايش أيامها وظروفك ماكنتش هتبقى مرتاحة ولو

هيغريها العريس من البداية يبقى مش هتكمل معاك طريقك.

تنهدت وأكملت..

- فرحها الخميس الجاي يا نصر.

ما عناني في كلامها كله إلا تلك الجملة الأخيرة.. "بنت الـــ.. ما قالتليش امبارح ليه ما احنا كنا متنيلين سوا؟!".. ليس هذا وقت الغضب.. قلت..

- ربنا يوفقها.. سيبك منها يا ست الكل خليني بس في المهم.. أنا خلاص همي في المذاكرة وناوي على تقدير.. بس كنت عايز منك طلب.. ممكن؟

- قول يا حبيبي..

- عايز ابتدي أدوَّر على محل علشان عالصيف اكون خدته وابتدي اوضبه واحدة واحدة ديكورات وكده يعني.. يعني كمان سنة ونص هاكون مخلص المعهد ويكون جهز عالشغل إن شاء الله.

سكتت لحظة، ثم قالت:

- خير إن شاء الله.. أنت عايزه فين؟

- أنضف حتة ممكنة.. هاحط كل قرش ليّ فيه.

- ليه كده؟ مش ناوي تسيب فلوس لجوازك؟

تغير صوتها مع هذا السؤال.. لا زالت تقدِّر الموضوع بأكثر مما يستحق على ما يبدو، وتريد تعويضي. قمت، ففتحت النور.. ففاجأتني دموعها، وفاجأتها ابتسامتي..

– أنت مش زعلان يا نصر بجد؟

– يا ست الكل اللي ما تشترينيش خلاص.. ربنا يهديها بقى لعريسها.

دور العاقل المتقي لا يليق بي، ولكن فليكن من أجل أمي.

– خلينا في الجد بقى.. المحل في حتة كويسة هيجيب كويس وهيجوزني كمان ويعيشني.. إنما لو استرخصت يبقى هاشتغل في الرخيص وإن اتجوزت بباقي الفلوس مش هاعرف أعيِّش اللي هاخدها من بيت أهلها دي.. صح الكلام؟

سكتت قليلا، وبدت تفكر فيما قلت، فأكملت:

– وبعدين يا ست الكل أنا لسه ١٩ سنة مش مستعجل عالجواز يعني ولا ينفع أدخل بيت اقعد قدام راجل أقول له جوزني بنتك.

ابتسمت..

– والنبي ده أنت أرجل من اللي الشيبة في راسهم يا نصر.

قامت، وهي تقول..

– يللا أسيبك تذاكر.. وهاشوف لك أنا موضوع المحل دا خلاص.

خرجت.. وظللت أنظر وراءها كأنما أعاتب أثرها على ما ترك فيّ من خزي. "بقى أنت أرجل من اللي الشيبة في راسهم يا نصر؟.. دا أنت زبالة يا شيخ.. لو بتنام مع بت من الشارع كنت بقيت نضيف.. إنما دا لا اعتبار لجيرة ولا لُيتم البت ولا للراجل اللي مخطوبة له.. حاجة تغمم النفس".

مددت النظر أمامي، فاصطدمت عيني بالساعة.. فوجئت أني تأخرت.. قفزت من مكاني، وغيرت ملابسي سريعًا، وهرولت إلى الباب. كدت أصطدم بأمي، التي سألتي:

– على فين يا بني ما كنت بتذاكر؟!

– هاصلي العشا وأطلع على طول يا ام اشرف.

نزلت مسرعًا، وصلت أمام بابها، ففتحت بمجرد أن لمحتني من العين السحرية، فتلفت حولي في نظرة سريعة، ثم دخلت.. "بنت اللذين إدمان"..!

(٤٦)

-لأ كده يبقى هتلغي فكرة السفر شوية مافيهاش نقاش.

-ولو لغيتها شوية تفتكر أرجع لها امتى؟ وبعدين قصدك ألغيها لكندا، أو يعني عند نيلي تحديدًا، وللا السفر كله؟

-أنت متعلق بيها فعلاً يا أشرف مش هزار.

نظرت له وسكت.. لن أنكر تعلقي بها، فذلك غباء مكشوف، لا أحب أن أمارسه. لكنني مؤمن باستحالة الأمر، فلن أستمر طويلاً بالتأكيد.

-على فكرة مش معنى أنك عارف أنه حرام أنك مش هتعمله.

عقدت حاجبي منصتا، فأكمل..

-بصيت على جسمها على الشات كراجل وللا لأ؟

-حصل.

-يبقى مش هتقاومها كتير وكويس أن جت منها وقطعت معاك.

أحسست أنه يعري نفسي أمامي، فيصدمني بعوراتي. لكن ذلك الخنّاس له ألاعيبه، فالأمر ليس بتلك البساطة..

– يعني المفروض أسيبها لصاحبتها دي وتمشي في سكة الشذوذ؟

– وأنت مالك دا اختيارها!

أتكلم بانفعال، لكأني صادقٌ..

– مش كانت مرات ابويا يا عماد ولها حق عليّ حتى علشان خاطره؟!

ابتسم في سخرية متخابثة..

– هو حق أبوك عليها خلص خلاص بموته وحقه عليك أنك ما تبصلهاش كواحدة ست قاعدة قدامك بقميص نوم.

سكت لحظة، ثم سألني، أو بالأصح هاجمني:

– تفتكر كان قصدها ايه وهي بتقول لك هاوريك حاجة ما شفتهاش قبل كده؟

آثرت أن أصمت قليلا، كأني أفكر، ثم رددت بعصبية:

– ما تخليش دماغك توديك في سكة غلط.. هي...

قاطعني..

– هي السكة الوحيدة يا أشرف وما تكدبش أنت على نفسك.

خرجت من عنده محبطًا. لابد أن اجد حلاً.. إن كنت

سأخسر نيلي، فلا داعي لجعل المصيبة مصيبتين.. أفكر أنني ربما أحصل على فرصتي هناك، ولا أخبرها أني بالجوار كاحتمال آخر.. ما المانع. أزفر.. أعرف أنني كاذب، وأنني حالما أطأ المدينة، سأكون معها.

نسيت أن أسأله عن اقتراح أمي أن أتزوج، حتى إن سافرت لم أكن وحيدًا في سفرتي. عموما لا تهمني إجابته كثيرًا، وغالبا كان ليقول عبارته الأثيرة " مش دلوقت خالص".

زفرت في ضيق، وركبت سيارتي. الشوارع مشلولة الحركة تماما كحياتي وقراراتي. أكرة القيادة مترًا كل بضع دقائق. أتذكر الشوارع هناك، والسيارات، التي لا تسعل الدخان في وجه الآخرين. أرفع عيني إلى العمارات المشوهة.. لو رأى عماد الحياة هناك، فسيغيِّر كلامه.. ليس هناك مثل ذلك القذر، الذي يتطفل بمسح زجاج سيارتي دون إذن مني، وبخرقة أشد منه قذارة.

خطر في رأسي خاطر، ربما يكون أملاً، فأخذت الهاتف واتصلت بعماد.

-خير يا بني ما كنت لسه عندي.

-أصل السكة واقفة قلت أتسلى عليك.

ضحك، وسأل:

-خير صحيح؟

-كنت عايز أسألك على حاجتين ويا ريت ترد بأي حاجة غير أنه مش وقته.

-يعني أنت بتقرر إجابتي.. طيب بتتصل بيّ ليه ما ترد على نفسك وخلاص.

أكاد أسبه..

-يا أخي بطل الرخامة اللي فيك دي. باقول لك.. الوالدة بتدوَّر لي على عروسة...

قاطعني..

-لأ مش وقته خالص.

ضحكت..

-يخرب بيت كده. ما قلت لك بلاش دي.. دا أنت ما حيلتكش غيرها.

-طيب دي أولهم.. ايه تاني علشان سايق بس وداخل على لجنة.

-خلاص أكلمك بعدين..

-يا عم قول خلّص.

-أسافر وأكمل علاج نفسي هناك.. ها؟

سكت برهة، ثم قال:

-هو كده الموضوع عايز شرح مش وقته. بس بالمختصر التعامل مع نفسية المريض محتاج تبقى فاهم خلفياته اللي بتكوِّن تراثه الفكري والمعتقدي ودوافعه وصراعاته. يعني صعب حد ما يفهمش بيئتك ومسموحاتك وممنوعاتك يعالجك صح فيما عدا شوية الأدوية.

-اممممم.. وصلت.

-طيب أنا كمان وصلت عند الظابط خلاص.. سلام دلوقت.

أنهى المكالمة دون انتظار ردي، فوضعت الهاتف بجانبي. لم أجد في نفسي اعتراضا على كلامه، فمنطقه مقنع بالطبع.. يبدو أنه لا حل إلا التريث بعض الوقت. انتبهت إلى أنني اقتربت من المترل.. لم أعرف كيف قدت ووصلت وأنا غارق في شرودي إلى هذه الدرجة.. أحيانا ينبغي فعلا أن نحمد الله!

فتحت الباب، ودخلت في طريقي مباشرة إلى حجرتي. كنت غاضبة تشع رأسي نارًا. دخلت أمي تحمل ملابسي المغسولة المطوية لتضعها على سريري كعادتها، ففزعت مني..

– بسم الله الرحمن الرحيم.. أنتِ رجعتِ امتى؟

رددت في اقتضاب:

– لسه دلوقت.

سألتني محاولة أن تخفي حنانها.. تعرف أني لا أحب تلك النبرة، وتجعلني أصمت أكثر مما أتكلم.. أكره أن يشفق أحد عليّ مهما أصابني..

– مالك يا أسماء؟

زفرت.. كنت في حاجة لأن أتكلم، هل يمكنني؟.. ولكن ماذا أقول.. إنه غبي متخلف، أقسم أنه كذلك!..

– مالك يا بنتي بتنفخي ليه؟

اقتربت مني، ووضعت يدها على كتفي..

– أنتِ متخانقة مع ضياء؟

كيف عرِفَت؟.. "ايه قلب الأم ده لا مؤاخذة؟"

– اشمعنى ضيا يعني ما الخناق في كل حتة يا ستي.

ردت ضاحكة في بساطة..

– لأ.. بتتخانقي ياما في الشغل وللا في الشارع مش بتبقي عاملة كده.. وردك ده بقى بيقول إنك فعلا متخانقة معاه. عايزة تحكي لي وللا؟

نظرت إليها.. كم نبخس هذه السيدة حقها.. تفهم كل شاردة وواردة فينا، وتراقب كل ما يحدث، ولا نفهم نحن أي شيء عنها، ولا نحاول بذل بعض الجهد أو الاهتمام بذلك.. لا ألوم نفسي، فذلك أمر معتاد، فهي الأم ونحن الأبناء، وتلك طبيعة الأدوار. أجبتها:

– اتخانقنا.. قلت له إنك احتمال تتجوزي طلع أهبل.

اصفر وجهها، وتجلى عليه الضيق.. وقبل أن تعلق..

– ماما دا أمر ما يخصوش يتفلق.. هو من الأول أنا مختلفة معاه في حاجات كتير وبأقول له ماحناش نافعين سوا.. بس المرة دي شكله جاب ضرفها.

رفعت حاجبيها ومالت برأسها، وهي تقول في هدوء بارد أزعجني:

– هو رد فعله اللي مضايقني؟

لم أجد ردًا.. هذا ما لم أحسبه أو يخطر ببالي. قامت، وخرجت من الحجرة.. ناديتها..

–ماما

–مش باقي إلا كده صحيح..

ابتعدت متجهة إلى المطبخ، فذهبت وراءها..

–ماما ما تزعليش بس.. هو كان بيكلمني في أنه ييجي يقابل أشرف فانا قلت له إن أشرف مش وليّ أمري ويوم ما ييجي هيقابلك أنت وجوزك.

ضحكت.. تغير وجهها تماما في لحظة.. أخذت كيس اللحم من الفريزر فوضعته تحت الماء السائب من صنبور الحوض، وهي تهز رأسها وتقول:

–جوزي!.. ما تتخيروش كلكم.. خلفة تعِر..

التفت فجأة إليّ، ورشتني بالماء، فشهقت.. أحسست بالغضب، ولكنها ضحكت..

–أجري يا عيلة قولي للواد بتاعك ييجي يقابلني لو عايز. كنتِ شفتيني رديت على إيناس بـــ آه أو لأ علشان تقولي له جوز أمي؟.. جتك خيبة والاسم بس دكتوره.

سألتها في قلِق..

-هو أنتِ مش موافقة عليه؟

-مالكيش دعوة..

صحت كالأطفال..

-ماما!

نظرت لي للحظات، وأغلقت الصنبور، وذهبت إلى المنشفة المعلقة، فجففت يديها، وجاءت، فأخذت يدي، وخرجت بي إلى الصالة، وجلسنا. سألتني:

-بتحبي ضيا يا أسماء؟

أومأت أن نعم، فقالت:

-مش كفاية.

-يعني ايه؟

-يعني يا بنتي الست لما تحب تاخد الراجل بالهداوة.. على قد عقله يعني.

اعترضت..

-المفروض التعامل يبقى إنسان لإنسان.. في ندية واحترام ومساواة في الفكر.

ابتسمت وهزت رأسها نافية..

- كله كلام غلط في غلط.. بلاش هبل.. ربنا خلقنا جنسين يا بنتي.. لو كان ينفع يبقى في مساواة ما كان يبقى جنس واحد وخلاص. خدي ضيا على قد عقله هتكسبي.

- وأقعد اتكبت أنا بقى ويتفرد هو عليّ؟.. هو ده الصح؟.. لأ معلش الكلام دا قدم قوي و...

قاطعتني..

- لو الكلام دا قدم يبقى الكلام الجديد أهبل. أنتِ حرة بس التخبيط الكتير مش بيعدي لأ.. ده كل مرة بيسيب أثر وآخرها هتغنوا لسه فاكر كان زمان.

همت بالقيام، فمنعتها بيدي.. قالت:

- أنا على فكرة هارجع الشغل.

قطبت جبيني مستغربة..

- موضوع الجواز ده مش وقته أنتم لسه حواليّ مونسني.. ومش عايزة آخد أي قرار كبير إلا لما أنزل للدنيا تاني.. أنا نصيبي من ميراث أبوكم ما يعيشنيش ما هو اتقسم بيني وبين مراته التانية.

بسرعة قلت:

- ايه هو.. نصيب ايه وبتاع ايه ما كلنا عايشين سوا

عادي.

نظرت لي في عتاب.. إنها عزة نفسها بالطبع.. أعتقد لو أني مكانها لكان هذا شعوري أيضًا. قالت:

- اتصلي بالواد الدكتور ضيا واديهولي أكلمه.

(٤٨)

للأسف، لا ثورة ولا أي شيء سيغيِّر هؤلاء الناس.. الرؤوس فاسدة في كل مكان، ومن تحتهم ينخر الفساد في الأصغر. أنا حاولت وما قصرت، فلا داعي لأي لوم من أي أحد. كانت فقط فورة قهر جمعت الجميع على هدف، وهذا كل ما في الأمر.. ربما لم تكن إلا فورة كراهية تحديدًا.. أكثر ما يحفز البشر هنا هو الكراهية، ولهذا اشتعلت الثورة كل يوم أكثر من سابقه.

أيًا كان الأمر، سواء كان تحليلي صادقًا أم لا، فمستقبلي لم يعد هنا، بعد كل ذلك التعقيد الذي يقفون لي به، أساتذة الجامعة.. أساتذة! نعم، قدوة، ومعلمون ومرشدون بكل تأكيد.. ياللسخرية!

نبهني من ورائي بنقرة إصبعه في كتفي أن دوري في الطابور قد اقترب، فأفقت من شرودي، وتقدمت خطوات في المكان الذي خلا. أثنان آخران أنهيا أمورهما سريعا، ووصلت أمام الشباك، فأعطيت كعب الاستمارة للموظفة، فاستخرجت الاسم من على الحاسوب..

- خلص آه وقَّع هنا

وقعت أمام اسمي في دفتر كبير، فأخذت تبحث، ثم جاءتني بأغرب رد.. غير موجود، ولأسأل بعد أيام. قلت لها إن موعدي

كان منذ يومين، فهو بالتأكيد موجود. نادت أحد السعاة، وكتبت له البيانات في قصاصة ورق نقلا من على شاشة حاسوبها، فدخل يبحث عنه في مكتب داخلي.

كانت كأنها تكلم نفسها..

-ما هو طالع عالكمبيوتر أنه خلص بس مش لاقياه أعمل ايه يعني.

خرج الساعي يشير نفيا هو الآخر. فنظرت لي وهزت رأسها أن لا حيلة هناك..

-تعالى بعد يومين اسأل.

زفرت في ضجر، وطلبت منها كعب الاستمارة..

-طيب فين الوصل؟

أخذت تبحث أمامها تائهة، وعادت تكلم نفسها ثانية..

-كان هنا.. أنا شكلي رميته وللا ايه؟

بضجر، قلبت وجهها، وقالت لي:

-تعالى كمان يومين يكون موجود خلاص.

صحت بها:

-آجي أسأل على ايه إن كنت وقعت بالاستلام ومش

هيبقى معايا وصل حتى؟ ايه معايا يثبت وقتها أني ما أخدتوش ولّلا حتى قدمت عليه؟ شوفيلي يا الباسبور يا الوصل لو سمحتِ.

كانت تقلب في تلك الفوضى أمامها، تبحث عن الورقة، فقلبت يدها دفترا، فإذا باسمي ينبلج أمامي داخل صفحات جواز سفر ضمن عدة جوازات كانت مختفية داخل الدفتر.

صحت بها، وأنا أشير بيدي أن ها هو، فأدركته بيدها في سرعة، كأنها تلتقط ثروة، ولأول مرة منذ رأيت وجهها، ترتسم عليه ابتسامة.. استلمت جواز سفري، وشكرتها، ومضيت شاعرًا نحوها بشفقة عظيمة.. امرأة مرتبكة أو مهملة أو مهمومة بشيء لا يعلمه الواقفون أمامها بالتأكيد.. رأيت فيها شعب مصر كله.. كل انفعالاته، وأخطائه، وغلبه. أحسست أني مخنوق حتى الموت.. تشبثت بجواز سفري، ونزلت مسرعًا، أبحث عن الهواء، بعيدًا عن كل ذلك العرق، الذي استنشقته إلى صدري في الطابور.انتبهت أني أضم الجواز إلى صدري، وأنا أهم الخطو إلى السيارة. فتحت، الباب، وارتميت بداخلها لاهثا، وإحساس الاختناق يزداد أكثر، فأمسكت بالهاتف، واتصلت بعماد، ورجوته أن يفرغ لي بضع دقائق الآن.

- مسافة السكة أكون عندك أرجوك.

كنت أقود بعصبية ويداي ترتعشان، حتى وصلت، ودخلت إليه، دون أن أستأذن من الممرض الجالس، ولا محترمًا لاحتمال أن يكون معه أحد المرضى؛ ولحسن الحظ لم يكن معه أحد.

تكلمت كثيرًا.. حكيت له عن تجديد جواز السفر، والغباء والإهمال، وأسقطت على الموقف كل الموبقات المجتمعية التي نعيشها، وكيف أني أشعر برفض متضخم لكل شيء هنا.. صرخت أني أريد النجاة بنفسي.. ألححت عليه كثيرًا أن يوافق على سفري، فأصر بشكل كريه أن أتمهل بعض الوقت، وزادني نوعًا جديدًا من الدواء، ثم قال إن المرضى بالخارج كثيرون، وأن قصر العيني ليس مكانا لجلسة طويلة.

خرجت من عنده محبطًا أسبُّه.. ما الذي يرغمني أن أحصل على موافقته؟.. أخرجت جواز سفري من جيبي، ونظرت في ساعتي. لولا أن الوقت لم يعد يسعفني، لتوجهت إلى جاردن سيتي الآن. خرجت بالسيارة، وسرت بها قليلا، ثم عدت مصرًا أن أجرب الذهاب إلى السفارة، عبرت الجسر، وأخذت الطريق إليها، غاضبًا من كل سيارة تعطلني، وكل أحمق يحاول عبور الطريق أمامي.

وصلت هناك.. وقبل أن أنزل من السيارة، انتبهت أنني لم أجهز من أوراقي شيئًا. انتبهت لأن عليّ أن أعامِل كمًّا جبارًا من كآبة الموظفين لتجهيزها.. وانتبهت لأنني -لأول مرة- أكون

بهذا القدر من الحماقة والغفلة والاندفاع.. رحماك ربي!

ترجلت رغم ذلك، وتمشيت إلى قسم التأشيرات، فسحبت الاستمارة، وعدت إلى السيارة، فرميتها بها، وصفقت الباب في عصبية. وقفت قليلا إلى جوارها أتأمل فيما حولي، ثم قررت، وأغلقتها بالمفتاح، وتوجهت إلى الفندق المجاور.

حاولت الصعود إلى المطعم الدوّار في طابقه الحادي والأربعين، لكن أحبطني أنه يحتاج لحجز مسبق. كنت أشعر برغبة عارمة في النظر إلى القاهرة من الأعلى، للأسف لا مجال لأي بهجة في هذا البلد.. توجهت إلى ذلك البار ذي الطراز الانجليزي، بكراسيه المصنوعة من الماهوجنى والمكسوة بالجلد. أعرف المكان، فقد سبق وجاء بي إلى هنا بعض الأصدقاء، ورفضت الدخول يومها. وصلت هذه المرة عند مدخله مُقدِما، ثم ترددت للحظة أمام ذلك النادل المبتسم في ود، واعتذرت له، رغم إنه لم يسألني..

- آسف.. افتكرت أن أدويتي ممنوع معاها الكحول تماما.

رد بابتسامة، ووجدتني أبتعد مسرعا، وأنادي تاكسيا يحملني إلى البيت، فلم يكن من قِبلٍ لي بقيادة السيارة.

(٤٨)

– مش عارفة ماله ياختي.. مش عارفة..

– والله ياحبيبتي أنا خارجة من باب الشقة رايحة السوق لقيته بيترعش ومش منتبه وزي ما يكون مش عارفني.. طيب هاتوله دكتور طيب..

انتبه أشرف إلى الكلمة، وقال من بين شفتيه المرتعشتين:

– عماد..

تبادلنا النظرات، وهزت أم منال رأسها تتساءل.. فكرتُ لحظة، ثم التقطت هاتفه، وبحثت في آخر الأرقام التي اتصل بها، فوجدت اسم عماد يسبقه حرف الدال، فأخذت الهاتف، وخرجت، تاركًا أمي وأم منال معه.

اتصلت بالرقم، فرد سريعًا، كأنما ينتظر مكالمة أشرف. سارعت بالقول..

– معلش يا دكتور أنا نصر أخو دكتور أشرف علشان بس ما تقولش حاجة كده وللا كده..

ضحك عاليا وقال..

– هو أخوك بتاع كده وللا كده؟.. أنت ما تعرفوش

شكللك وللا أخوه من بعيد.

بدا لي لطيفا، وتعجبت أن يكون صديقًا لأخي. لكن لم يكن وقت الثرثرة، فقلت:

– معلش بس هو راجع تعبان قوي مش عارفين ماله ولما سمعهم بيقولوا نجيب دكتور قال اسمك فـــ...

قاطعني..

– تعبان ماله بالظبط؟.. حاول توصف لي حالته.

– هو بيترعش وزي ما يكون تايه. جه بتاكسي مش عارفين ساب العربية ليه ولا فين وأم منال جارتنا لقته ساند عالحيط تحت فسنِّدِته وطلعت لنا بيه.

– طيب أنا خلصت العيادة خلاص.. هاعدي عليه دلوقت.

– حضرتك عارف البيت؟

– آه ماانا جيت للوالدة مع أشرف قبل كده.. ربع ساعة أكون عندكم..

سكت برهة، تذكرته فيها، وقلقت.. إنه الطبيب النفسي، فماله بتعب أشرف؟.. أهو أيضا مريض نفسي؟ "هي وراثة وللا في ايه؟".. أحسست كم أنا بعيد عن هذا البيت ومن فيه..

ظهرت منال أمام باب الشقة المفتوح، بينما يكمل عماد كلامه، فأشرت لها بالدخول إلى أمها، وأنا أحاول التركيز فيما يقول..

– أنا هاجي بعربية المستشفى احتياط، وياريت بس.. أنت عندك كام سنة يا نصر؟

رددت في آلية..

– ١٩

– طيب راجل يعتمد عليك يعني.. يا ريت تحضر لأشرف شنطة صغيرة بغيارين وشبشب علشان احتمال يحتاج آخده معايا المستشفى يومين يريح أعصابه.

لم أستطع الرد.. كنت في حالة ذهول تام مما أسمع.. سمعته ينادي..

– أنت معايا؟

تنحنحت لكي أساعد صوتي على الخروج، ورددت..

– معاك يا دكتور.. بس يا ريت بلاش حكاية المستشفى دي أمي ما تستحملش.

– مش بمزاجنا يا نصر.. عموما مش هنسبق الأحداث.. حضر الشنطة بس وأنا هاشوفه ونقرر سوا..

أنهى المكالمة، وظللت ممسكا بالهاتف، لا أدري ماذا أفعل.. منال تطل عليّ من الحجرة، ثم تخرج، لتسألني عما هنالك، فأشيح لها بيدي أن دعيني.. "المرة اللي فاتت برضه كان بيقول ياخد ماما المستشفى.. هو ماله دا؟!"

دخلت إليهم، فرفعت أمي رأسها تسألني:

– ندهت دكتور؟

– كلمت دكتور عماد..

قفزت من عينيها دمعتين، وسارعت تقول..

– عماد ايه.. دي رعشة ويمكن تكون حمى وللا حاجة.

بدت لي على علمٍ بما لم أعرفه عن مرض أشرف.. بدت متوجسة، وتحاول أن تبعد خاطرًا تكرهه. لماذا لا تخبرني بحقيقة الأمر، فأنا أخوه، مهما اختلفنا؟.. فكرت أنه ربما يمنعها وجود منال وأمها من الكلام بصراحة أكثر، فأعفيتها من الإحراج، وقلت أنا لهما:

– طيب يا حلوين يا ريت بقى شوية برة علشان نغير له هدومه على ما الدكتور ييجي وكده!

قامتا دون اعتراض، مقدرتين للموقف، وأكدت أم منال على أمي أن تطلبها إن احتاجت أي شيء، ثم انصرفتا..

أغلقت الباب ورائهما، وعدت أخبرها بما قاله عماد، وسألتها:

- هو أشرف عيان نفسيا؟

زمت شفتيها وسكتت.. كان هذا كافٍ جدا لأفهم أنه مريض، وهي تعرف، وهي لا تريد أن تشي بسره لي. قلت:

- عموما الدكتور قال نحضر له شنطة تقضيه يومين في المستشفى.

انفجرت في البكاء، ولكنها أومأت برأسها، وأخذت تتحرك في الحجرة تجهز ملابسه، وتضع نظارته في جرابها، وتتخير كتابين أيضا، وترتب كل ذلك في حقيبة رياضية أخرجتها من صوانه.. كان لا يزال كأنه لا يعي، رغم أن عينيه مفتوحتان.. وكانت تكلم نفسها وهي ترتب أشياءه..

- كنت زي الفل يا أشرف لحد السفرية المنيلة دي.. بلد بنت كلب منحوسة وست قدمها مهبب أخدوا أبوك وماعتقوكش يا حبيبي من شرهم.

لم أمنع ضحكة متهكمة خرجت مني، وقلت..

- يا حاجة كندا بنت كلب برضه! أمال مصر تبقى بنت ايه؟

نظرت لي نظرة أخافتني.. خفت عليها، وأحسست أن غليانا رهيبا يفور بداخل ذلك السكون.. قالت وهي كالتائهة..

– والله ما انتم فاهمين حاجة.. واخدينها بالمظاهر ولا فاهمين حاجة..

عادت لترتيب الحقيبة وهي تردد..

– آدي اللي خدناه من كندا والفلبينية النحس.. ربنا يستر.

لم يتأخر عماد، فقبل ربع الساعة كان يجلس على الكرسي بجوار سرير أشرف، ويسألنا أن نتركهما لبعض الوقت. كنت عصبيا، أروح وأجئ في الصالة، بينما أمي تجلس على كرسي السفرة، متكئة بكوعها إلى المنضدة، وتسند رأسها على كفيها، وتنسال دموعها في صمت.

وصلت أسماء، ودخلت تبتسم في ابتهاج غريب عليها، لكن سرعان ما لاحظت دموع أمي، فانزعجت، وبترت ابتسامتها، وألقت مفاتيحها وحقيبتها على المنضدة، وهي تسألها عما بها. لم تستطع أمي الكلام، وغلبتها دموعها، فحكيت أنا لأسماء ما حدث باختصار.. ألقت بنفسها على الكرسي المجاور لأمي، ولم تنطق، وجلسنا ننتظر.

خرج عماد أخيرًا، فأسرعنا إليه أنا وأسماء، ولكن، قبل أن

ينطق بكلمة، نادته أمي في وقار..

- تعالى يا عماد يا بني هنا.. كلمني أنا.

ابتسم لنا، ثم خطا نحو السفرة، وسحب كرسيا، وجلس أمامها وجلسنا أنا وأسماء أيضا. شرح لنا مرض أشرف محاولا تبسيطه.. ما فهمته أن اسمه نوبات هلع، وأنه لن يمر سريعا، وأمامنا مرات من الانتكاس قد تتتالى..

- المشكلة اللي جدت عليه دلوقت نوبة اكتئاب حاد ودا بيحصل كتير عند مرضى الهلع.. هو رفض يروح المستشفى رغم إنه دكتور وفاهم..

تنهد وهو يرى الارتياح للقرار الخطأ – من وجهة نظره – على وجه أمي..

- عموما هو شيء عارض مش أصل مرضه وإن شاء الله هيعدي ومش هيتكرر بالصورة دي. بالنسبة لكم فالأمور لازم تمشي طبيعي خالص مش مطلوب منكم أي تغيير.. يعني مجرد وجودكم حواليه كويس مش أكتر من كدا.

وتوجه إلى أمي بالكلام..

- الدلع مش مطلوب على الإطلاق.

كانت تلك الجملة الأخيرة هي أكثر ما يهمني.. أنا غير مستعد على الإطلاق لتحمل مسئولية مرضه، فهو حتى وإن

مرض، فهو طبيب بدأ مستقبله بنجاح، ومن حقي أيضا أن أنتبه لدراستي ومشروعي.

انصرف أخيرًا، وهممت بالقيام إلى حجرتي لأذاكر قليلا، فقد ضاع أغلب اليوم، فسبقتي أمي تطلب مني النزول لشراء بعض الحاجات، ثم التفتت إلى أسماء تسألها..

- كلمتِ ضيا؟

ردت وهي تمسح دموعها..

- لأ هاكلمه دلوقت يلغي الميعاد مش وقته خالص.

أمسكت أمي يدها، التي كانت تمدها إلى هاتفها، وقالت:

- أنا باسألك كلمتيه تحددي ميعاد مش تلغيه.. خليه ييجي إياك يتكسر النحس دا والبيت تدخله فرحة بقى أحسن استويت خلاص.

قامت، لتدخل إلى أشرف، وهي تسألني..

- معاك فلوس كفاية للحاجات يا نصر؟

- آه معايا يكفي.

انطلقت تكلم نفسها..

- والله كان عتبته خير أول ما أخدناه.. مش عارفة ايه اللي غيَّرها علينا كده.. يكونش قدم أمي واخواتي في العمارة؟..

استمرت في حديثها إلى نفسها، ونزلت أنا لأحضر طلباتها.

قبل أن أخرج من باب العمارة، تذكرت منال، وكم كنت جافا معها. عدت، لأنقر برفق بابها، ففوجئت بأمها هي من تفتح لي..

– ايوة يا طنط أنا قلت أطمنك على أشرف.. الدكتور جاله وطمننا وهِدي ونام.

– الله يطمنكم يا بني.. ماكنش وقته خالص.. دا كان نفسي تبقوا معانا كلكم كده بعد بكرة في فرح منال.

ابتسمت أجاملها، وقلت:

– إن شاء الله معاكم دي منال عروسة الحتة كلها يا ست الكل.

ضحكت، وربتت على كتفي، ثم مالت تهمس بسؤالها، وكأن أمي ستسمعنا..

– يعني يا بني لو زغردت لمنال وكدا يعني.. أمك مش هتزعل؟

– لا لا لا براحتك يا طنط.. يعني بنتك الوحيدة وحقك يعني هو ايه هو..

نظرت لي بحب حقيقي..

- ربنا يخليك يا حبيبي.. حاسس بيّ.. طول عمركم أحسن جيرة والله.

استأذنتها، وخرجت إلى الشارع وأنا أنفخ غيظا، وأسب وألعن منال واليوم الذي أحببتها فيها.

(٤٩)

أنا مرة أخرى.. ليس هناك من أحد غيري، فالكل مشغول..

هذه الزينات والضجة هي خطبة أسماء وضياء.. وأمي هناك، تلك التي تلبس ثوبًا أزرق. لا أكاد أعرفها.."والنعمة ست زي القمر كانت خسارة في ابويا". سعيدة هي ولكن ما تظهره مبالغ فيه، كما لو كانت تجبر قلبها على السعادة و "مش عارفة تستطعمها".

أشرف يجلس هناك مع بعض أصدقائه، وبينهم عماد. تحسن كثيرًا، واستقر.. لا أعني استقر في عيشته هنا، بل إنه قد بدأ إجراءات الهجرة في إصرار، ودون أن يخبر أحدًا، ولا حتى عماد. أنا "علشان ايدي طويلة شوية وغاوي فضول ودعبسة في حاجته شفت الورق في درج مكتبه". لم أخبر أمي، فمهما ولولت – وهي لا تفعل – فواضح جدًا أنه قرر بالفعل، ولا داعي للمشاكل.

هل يرى أحد ذلك المتأنق الجالس مع أخوالي؟.. هذا زوج منال. من يراه لا يتخيل أن زوجة ذلك المنتفش تأوي إلى حضن العبد لله، وهي لم تكمل فصل الربيع في زيجتها. أين هي؟.. ها هي تمازح أسماء هناك، وتنحني عليها، فتتعلق بها أعين الرجال..

"عليها جسم ابن لذين وكيس الجوافة قال بيتعايق بيها.. مافيش نخوة خالص!"

أنا لا أشعر بالذنب أو الاستحياء منه، بل إن علاقتنا ظريفة إلى حد كبير. هو من يريد لزوجته أن تكون سببا لحسده على ما يقتني. "براحته!"

الأفراح دخلت البيت أخيرًا على رأي أمي.. أنا كذلك نتيجتي ظهرت، ولم يبق على تحقيق أول خطوات حلمي إلا سنة أخرى.. ونتيجة منال ظهرت هي الأخرى.. طبعا لابد أن أضحك.. "متوقع يعني".. تقولها هي "نجحت بمادة".. وأغيظها وأقول "يعني سقطتِ في مادة" فتضربني في صدري، وتسبني، فأسكتها بقبلة، وأقول لها: "يا بت أنت موهبتك هنا في السرير مش في الكتاب.. كم بنت بتاخد شهادات؟ إنما كام واحدة بتعرف تبقى ست صح؟"

يرضيها هذا الكلام إلى أقصى حدود الانتشاء. أحيانا أعجب منها، وأتشكك في أنها عرفت البراءة يومًا، وخاصة عندما يصفها المنفوش زوجها بالطفلة الساذجة!.. كيف يعتقد ذلك، لا أدري. هل خدعتني ببراءتها في البداية أيضًا؟.. أكره هذا السؤال، وأشعر أنه في الغالب تنصل من الاعتراف بالذنب؛ لكن هذا لا يمنع أنني أحيانا أشعر أنه منطقي!

جدتي.. الكبيرة.. ها هي قد ظهرت عند باب الشقة المفتوح، تتوكأ بيمناها على عصاها العاجية، التي طالما لسعتني بها على مؤخرتي. ابتسمت، وقررت مناغشتها، فأسرعت أستقبلها، وآخذ بيدها اليسرى، وأقول:

– ايه يا كبيرة مش كنتِ حالفة ما تدخليش بيتنا!

انفلت لسانها بسبة بذيئة، فضحكت عاليا، وحمدت الله أن لم يسمعها أهل العريس، وحاولت هي رفع عصاها لتضرب مؤخرتي بها، ولكنها لم تحفظ توازنها بدونها، فتراجعت عن مشروعها، ونزعت يدها من يدي. لحقتنا أمي، فعجلت إليها، وأخذت يدها، لتذهب بها إلى أسماء وعريسها.

وأخيرًا، حان الوقت ليلبس ضياء عروسه تلك الشبكة (المتواضعة) ، والتي بالطبع جعلت أخوالي وجدتي لا يخفون استياءهم، ونادت جدتي أمي بصوتٍ عالٍ، وخلعت من إصبعها خاتمًا زمرديًا، وأعطته لها..

– خدي حطيه في ايد بنتك بلا قلة قيمة..

حارت أمي فيما تفعل، فهي تعرف ما يمكن أن تفعله أسماء، وكذلك تعرف جيدًا لسان الكبيرة إن غضبت. أسرعت، فاختطفت الخاتم من يدها المبسوطة لا تزال، وقفزت كالقرد إلى حيث أسماء، وخطفت يدها، وألبستها الخاتم، وأنا أهزل فأقول

لضياء..

– كده ما حدش أحسن من حد يا عريس.. شبكتها أنا كمان ولينا فيها زي ما ليك.

"أي كلام في الهجايص بس قلبت بضحك واتحلت الأزمة"..

قام الجميع إلى الطعام، الذي أعدته أمي بكامله، وأشرت أنا لمنال خلسة، فاستأذنت أمي ودخلت حجرتها، بحجة لا أدري ما هي، وكدت أنسل وراءها، لولا أن وجدت أمي تترك الجميع، وتتجه بهمة للترحيب بقادمٍ متأخر.

أعرف هذا الرجل، ولكن أين رأيته؟.. خبطت رأسي بكفي أخيرًا.. "إدريس بتاع الأجزخانة.." هززت رأسي متسائلا، وأنا أرى يدها قد استقرت في يده، وطالت المصافحة..

"هو ايه الموضوع؟!"

(٥٠)

تنهيدة من القلب، لفتت نظر الجالسة إلى جواري، فابتسمت. بادلتها الابتسام، ثم أسندت رأسي إلى ظهر الكرسي العالي، وأغمضت عيني، فليس لدي أدنى استعداد لمقاطعة هذا الإحساس الجميل.. ذلك الإحساس عندما تحقق هدفك، بعد سعي عطلته عثرات كثيرة.

يأتي صوت الكابتن مرحبًا، ثم مصدرًا تعليمات ربط الأحزمة، ثم بدأ ذلك الفيلم الممل، الذي قل من يتابعه، عن إعدادات الأمان والطوارئ. لا أجد له أي داعٍ، فكلي ثقة أن رحلتي ستكتمل بسلام، فلا يمكن أن يكون القدر قد أتعبني بكل هذا القدر، لكي يضيّع تعبي في رحلة فاشلة، أو حادثة جوية.

ينتهي الصعود، الذي أصابني ببعض الألم في أذني، ويرن صفير الأمان، لنفك الأحزمة، وأرجع مسند الكرسي للخلف، وأسترخي أكثر. أجدني أبتسم في نشوة، وأنا أتذكر آخر كلمات نيلي لي: سآخذ إجازة وأنتظرك بنفسي في المطار.

لم يكن من العسير معاودة اتصالي بها. ليس الإغلاق آخر الدنيا في عالم التواصل، فما أيسر عمل عضوية جديدة وبريد الكتروني جديد، مرة واثنان وثلاثة.. وفي النهاية ردت. أخيرًا

بعد أن تعبت ولا أحد يفهم ما بي، هي فهمت جيدًا، وأوصلتني باختصاصي نفسي كندي ممتاز، ومضينا على الطريق بالتراسل والتواصل، ونيلي تدفع له هناك بدلا مني. سأكمل معه، فهو يتفهم مشاعري ولا يضغطني كما يفعل ذلك الذي يظن نفسه عالمـــًا نفسيا، عماد، وهو في حقيقة أمره مجرد فرد غارق في مجتمعه وقيود بيئته، لم يحرره علمه، ولم يفصل طبه عما يضربه عليه والداه.

لا زالت نيلي في نفس الشقة، ومعها كيرا.. هو ليس ذنبها فيما أرى، بل هو قهر الظروف لها، فليس بإمكانها وحيدة أن تقاوم. معًا سنفعل. هي تنتظرني لتحتمي بي، ولننتقل معًا إلى مسكن بجوار تلك المستشفى، التي سأعمل بها، في ولاية أخرى غير تلك التي تعيش فيها، وستنقل عملها معي، فتخصصها مطلوب في كل مكان، وقد حصلت على الجنسية بالفعل.

تبقى مشكلة الزواج.. أشعر بتنميل في رأسي حين أصل لتلك المسألة. سأجد لها حلاً، لا أدري ما هو.. لا أنا ولا هي نعترف بزواجها من أبي، فلم يكن إلا مصلحة مشتركة لا أكثر. هي تقول إنها قد تسلم، والإسلام – حسبما سألَت – يجُبُ ما قبله، وهكذا يكون زواجها من أبي كأن لم يكن.. لا أدري إن كان ذلك صحيحا أم لا،لم أعد أفكر كثيرًا، ولكنني واثق أننا سنجد حلاً يريح ضميري.. بالتأكيد.

أحاول أن أنزع هذا الأمر من تفكيري، وأعود إلى إحساس الراحة، وحلم المستقبل المفتوح.. العلم والخبرة والاعتراف.. نعم، الاعتراف بك وبمجهودك وعلمك وتقدمك أمر لا يقل أهمية عن راتبك وطعامك ومسكنك.. وهناك، في كندا، يعترفون بك عدلاً، ويعترف بك العالم كله معهم.. أضحك في تهكم بلا صوت، حتى في بلدي.. أو فلأقل: في بلدي السابق، سيعترفون بي وأنا هناك، ويطلقون عليّ لقب بروفيسير، ويفاخرون بأصلي المصري.

تفاجئني يد رقيقة كالملائكة، تمسح دمعة، لم أشعر بها حين غافلتي وفرت من عيني المغمضة. أفتح عيني، فأجدها جارتي في السفر.. تبتسم، وتسألني بتلك اللكنة الأمريكية الجميلة إن كنت أحلم بشيء سيء. موقف عجيب، يذكرني بأساطير الأميرات الحالمات في قصص المكتبة الخضراء للأطفال. ابتسمت كطفل، واستسلمت ليدها تمسح رأسي، وأغمضت عيني مجددًا.

هذه المرة غفوت فعلا.. وحين صحوت، على مطبٍ هوائي، وجدتها قد رفعت ذلك المسند بين الكرسيين، وأسندت رأسها إلى كتفي، ونامت. كان دوري لأعبث في شعرها المرسل، وأستنشق عطرها الأشبه برائحة الفانيليا، وأبتسم لها، حين فتحت عينيها الناعستين في كسل. أخبرتها أن تعتدل وتضع الحزام، حسب التعليمات، وأقمت مسند الكرسي أنا أيضًا ووضعت حزامي.

سألتني عن الساعة، وفوجئنا معًا أننا نمنا ما يقرب من ثلاث ساعات، فضحكنا، وتبادلنا تعليقات من نوعية "لقد كان جوارك مريحًا".. "منحتني سكينة كنت أحتاجها".. تلك العبارات التي غالبا لا تقال إلا لعابر غريب في حياتك، يريحك بالاستماع إلى ما لا يهمه من أمرك. لكننا لم نفعل.. لم نمنح بعضنا أكثر من ساعات النوم الثلاث في عمق جميل.

أمسكت هي كتابا تصطحبه، وأخذت أنا أتصفح بحثا طبيا على حاسوبي. لا زال أمامنا وقت طويل، فقد اخترت الرحلة المباشرة إلى مطار هوبديل.. أقشعر، وأنا أتخيل البرد الآن في نيوفاوندلاند، حيث سأستقر. أقليم لم أعرفه من قبل، يبعد عن تورنتو، مستقر نيلي، قرابة الألفي كيلو متر، أي ضعف السفر من الأسكندرية إلى النوبة.. جعلتني المقارنة أبتسم ساخرًا ممن يسمونها أم الدنيا، أولئك الذين لم يعرفوا من الدنيا غيرها. نيلي رغم كل هذه المسافة ستنتظرني بالمطار.. بل إنها ليست المرة الأولى، التي تسافر هناك، فهي من أنهت أوراقي للوظيفة، وهي من أعدت لِيّ السكن. لولاها ما تحركت شبرًا عن ذلك المستنقع الذي يرتضونه هناك.

تناديني جارتي الملائكية، فتطل صورة أمي بقوة، حتى أنني رددت عليها بالعربية. ابتسمت، وهزت رأسها، وسألتني عن اسمي، فأخبرتها، وسألتها عن اسمها، وبدأنا التعارف. بالتأكيد

ليست صدفة غريبة أن نكون ذاهبين لنفس المكان، فهذا هدف الطائرة، الذي اختاره كل ركابها. لكن الصدفة الجميلة كانت حين أخبرتني أنها أيضا مهاجرة إلى هناك، كانت في رحلة تمنتها طويلا إلى الغردقة، سبقت انتقالها من بلدها الأم، بلغاريا، إلى كندا.

– هل تعرف أحدًا هناك؟.. أعني هل سينتظرك أحد؟

– لي صديقة حميمة ستنتظرني بالفعل.

– محظوظ أنت.. لا أعرف ما هي خطوتي الأولى هناك، لكني متفائلة، فعلى الأقل مسافرة، وفي حوزتي الـ ـجرين كارت) وفي انتظاري عمل جيد.

– وماذا عن المسكن؟

هزت رأسها وسكتت، فلم أتكلم أنا الآخر، ثم عاد كل منا إلى ما كان يفعله.

(٥١)

أبكي وأزغرد معا.. فتح لي ضياء، وهو يضحك..

- ايه يا حماتي الجيران كلهم سمعوا الزغاريد..

ضحكت..

- وماله نرفع معنوياتهم معانا شوية.. أمال أسماء نايمة لسه؟

- لسه.. آخر كسل أسماء دي.

ربت على كتفه..

- ربنا يهنيكم.

خرجت أسماء من حجرتها، وهي تضحك..

- أهلا بالمرأة العاملة.. أخيرًا نورتيني يا ست الكل.

أشير بيدي في حزم..

- ما ازعجش العرايس قبل السبوع.. ما تقوليش وحشتك يعني..

احتضنتني بكل قوتها، وقالت:

- آااااه.. وحشتيني ووحشني الدلع يا ست الكل.

اعترض ضياء صاخبا، وضحكنا كلنا.. تبدو لي سعيدة،

وتبدو علاقتهما طيبة مشرقة.. تفاءلت، واطمأننت، وقمت لأنصرف، فأنا لا أحب دور الحماة كثيرًا. استوقفتني تسأل..

– أشرف سافر خلاص؟

هي تعرف إجابة سؤالها، ولا أدري لَمَ تسأله الآن. يبدو أن الطبع النكدي من موروثاتنا التراثية. ربت على يدها المرتاحة في يمناي، وقلت لها:

– هيبقى كويس إن شاء الله.. هو مسافر مبسوط ومتفائل ورايح مرستأ أحواله وشغله وسكنه يعني مافيش حاجة تخوفني عليه..

سكت لبرهة أعض شفتي، تنهدت، وقلت وأنا أترك يدها..

– ادعي له أنتِ بس ربنا يبعد مرات أبوه عنه وهو يبقى زي الفل.

أسرعت في خطوي على الطرقة، مبتعدة عن بابها، ومتجهة إلى السلم، قبل أن تستفسر أكثر. لا أريد الكلام في ذلك الأمر، ولا حتى مع نفسي.

مشيت أتنفس بعمق.. جميلة هي المدن الجديدة.. بعيدة وصعبة المواصلات، لكنها هادئة، يمكن فيها المشي. مشيت حتى موقف الميكروباصات، حوالي كيلومترين، لا يضايقني ضجيج، ولا يصادم كتفي البشر.. أسفت أني وصلت بهذه السرعة، وركبت.

شردت أتأمل من الشباك، وأتساءل إن كان يمكنني بيع الشقة، وشراء شقة صغيرة هنا.. أو ربما في مكان آخر، كي لا أضايق أسماء وزوجها. تنهدت.. هانت.. لم يبق سوى نصر، وكلها شهور قليلة وينتهي من دراسته.

تذكرت سؤاله لي عن دكتور إدريس، فضحكت بلا صوت، ولكنني أثرت فضول الجالسة بجواري. كتمت ضحكي، وعدت أتأمل من الشباك في صمت، متجنبة ثرثرة فضولية لن أطيقها.

– أنت اتجننت والنبي يا واد يا نصر.. ايه الغباوة اللي حطت عليك دي؟ دكتور إدريس ده يكبر عن أشرف كام سنة يا فالح يعني زي ابني.

وقتها عاش دور اللماح الخبيث، وقال:

– يا أم أشرف.. يا نادية.. زي ابنك ايه بس دا انت سيبتي الناس وجريتِ عليه..

وأخذ يغني تلك الأغنية: "نسيت الدنيا وجريت عليه.. سبقني هو وفتح اديه.."

سألت جارتي في الكرسي:

– هي وردة عايشة لسه وللا ماتت؟.. إلا الواحد ما بقاش متابع حاجة..

كنا قد وصلنا أخيرًا، فتركتها، ونزلت، دون أن

انتظر إجابتها. كان انتقالا سخيفا من الهدوء هناك إلى كل موبقات العاصمة.

وصلت إلى البيت، فغيَّرت ملابسي أقطع الوقت، ثم لم احتمل الانتظار أكثر، فاتصلت بنصر، أطمئن عليه، فاليوم ينهي امتحانات نصف العام. قال إنه على الباب، وسمعت الباب يفتح فعلا. أغلقت الهاتف، وخرجت إليه، فطمأنني (عالسريع) كعادته، وتركته يبدِّل ملابسه، وجهزت الغداء..

– كنت عايزة آخد رأيك يا نصر..

ابتسمت وأكملت..

– ما هو ما عادش فاضل غيرك في وشي..

– منوراني ومنورك يا قمر..

نظرت له قليلا، أتردد في استشارته، ثم قلت:

– بأفكر أبيع الشقة دي وآخد شقة صغيرة على قدي في أي مدينة جديدة.

توقف عن الأكل، ونظر لي متفاجئا..

– ازاي يعني يا ست الكل؟ يعني بعد ما أشارك دكتور إدريس وهنفتح خلاص والمحل فركة كعب من البيت، نقوم نعزل؟

ضايقني كلامه، رغم أنني لم أتوقع سواه..

- سبق وقلت لكم يا نصر إن الشقة دي بتاعتي.. ما تقاطعنيش.. المحل أنت ما كنتش تحلم بيه وكملت لك على فلوسه وفلست أنا. وافتكر أن دا اختيارك: المحل يجيب الشقة.

سكت ممتعضا، ثم تكلم كمن وجد ما يقول أخيرًا..

- طيب في حاجتين.. أولاً تروحي مدينة جديدة ازاي وشغلك هنا؟

- وثانيا؟

- طيب ما تحلي أولا قبلها!

- دي بسيطة.. أتنقل أي إدارة صحة وللا حتى أسوي معاشي مانا كده هاطلع بقرشين فرق التمن بين الشقتين أحطهم في البنك يجيبوا قرش كل شهر وللا انشالله افتح بيهم محل أنا كمان أبيع كراريس وأقلام ايه المشكلة يعني.

لوى بوزه، مظهرا استيائه، فلم أهتم..

- والتانية ايه يا نصر؟

- التانية طيب أأجر منك الشقة وتفضل ملكك.. وأنت بالإيجار تأجري هناك..

ضحكت هازئة..

- ده ايه النصاحة دي؟! وإن شاء الله أعيش ازاي يا فالح لما اللي آخده من هنا إيجار أحطه هناك إيجار؟ وبعدين بصراحة بقى مش عايزة اسيبك هنا.. ما تفتحش بؤك.. أنت فاهم باتكلم عن ايه وكفاية لحد كده البت حامل.

كان مذهولا، فلم يتوقع أني ألاحظ علاقته بمنال. مسألة حملها هذه من اختراعي، ولم أدر ما سيكون وقعها عليه، لكن لعله يستفيق، ويتقي الله ، إن لم يكن في منال، ففي الجيرة وأم منال.

- حامل؟!.. منه؟!

انعقد حاجباي، وأحسست بغصه، وأمسكت ذراعه غارسة فيه أظافري، وسألته بصوت مكتوم..

- يعني ايه يا نصر؟.. أنت واصل معاها لفين يا واد؟

نظر لي دون أن ينطق.. خفق قلبي..برهة، ثم قال:

- ما تتخضيش كدا يا أم أشرف.. ما فيش حاجة.. وخلاص يعني أدينا هنعزل اهوه.

- ما اتخضش وادينا هنعزل؟!

- يا ستي ما تتخضيش.. أنا بس أصل اللي أعرفه أن جوزها مش شغال.. بس دا الموضوع.

لم أدر بنفسي إلا وأنا أصفعه بكل ما أوتيت من قوة.. صرخ

في وجهي..

- ليه كدا طيب؟

صرخت به..

- وأنت عرفت منين؟ هي تقول لك كدا بأمارة ايه؟..

تركني واندفع إلى حجرته، وصفق بابه وراءه. لم أدرِ هل ألومه، أم أنزل لأمها وأقول لها "تلم الفاجرة بنتها"..

"ألاقيها منك وللا من اللي مسافر لمرات أبوه.. هو أنتم واكلين حرام وللا ايه اللي فيكم وللا أنا ما ربيتش؟"..

كنت أكلم نفسي لا أحد سواها، وأشعر بالانهيار ينسحب على عقلي.لم أفق لنفسي إلا وهو يجذبني بعيدًا عن الحائط، الذي أخذت أخبط رأسي به دون وعي.

(٥٢)

كل شيء هنا غريب عني.. لا أستطيع أن أنكر أنني خائف من السقوط في تلك النوبات مجددا، بعد أن ارتحت لتباعدها وانخفاض حدتها منذ فترة. ربما استقرار التشخيص على كونها نوبات هلع، وليست حنين مرضي للوطن يطمئنني بعض الشيء. ذلك الاختصاصي، الذي كنت أتابع معه، حولني لاختصاصي آخر هنا، أرتاح معه. لي تأمين صحي يعفيني من مصاريف الأطباء الباهظة هنا.

لا تزال نيلي في تورنتو، لم تستطع التخلص من التصاق كيرا الكريه بها. استقبلني حين وصولي، وأعطتني خط جوال، وباتت معي يومها، و..

نعم حدث ذلك، ولم أشعر بذرة ندم. ربما ليس الآن يحين الإحساس بالذنب ويبدأ الألم.. أما الآن، فلا أعاني إلا الشوق. نحن على اتصال يومي، وربما أكثر من مرة في اليوم، وأراها على برنامج skype ، إن لم تتعارض مواعيد عملنا. هنا الأولوية للعمل، قبل الحب، وقبل كل شيء، هو عماد الحياة، والإهمال فيه خطيئة، لن يغفرها لك أحد، خاصة وأنا لا زلت جديدا جدا. هي لا تبخل بنفسها عليّ، ولا أنا كذلك، عبر شاشة الحاسوب.

ولكن مؤخرًا، أصبحت غالبًا أنا من أبحث عنها، سواء على الهاتف، أو الإنترنت، وهذا يقلقني. أحيانا أتشكك في أعذارها التي لا تنتهي، فوعدها لي كان بالانتقال معي خلال شهر على الأكثر، لكنني أعود فأجد ألف تبرير، لا أحتاجهم.

كم أشعر بالملل!.. الولاية هنا ليست كتورنتو، والبرد أشد، ولا تغري المنطقة التي أعيش فيها بالنزول كثيرًا. أتجول في شقتي الصغيرة، التي هي عبارة عن حجرة للنوم، وصالة ينفتح عليها مطبخ، على النظام الأمريكي. أشعر بالبرودة تتغلغل في نفسي، فأعد كوبا من النسكافيه منزوع الكافيين، فالوقت متأخر، وأحتاج النوم للاستيقاظ مبكرًا للعمل. آخذه وأجلس، أستنشق نكهته القوية، وأتلذذ بمذاقه.. ثم أتوقف عند فكرة ما.. إن كانت مادة القهوة، التي تصنع متعتها قد نزعت منها، فلماذا نشربها؟.. ألهذه الدرجة يستمتع الإنسان بخداع نفسه؟!

أسقط الفكرة على نيلي وعلاقتي بها.. لا أدري ما العلاقة، ولكن هناك علاقة بشكل مبهم أراها في عقلي.. علاقة جعلت قلبي ينقبض، ولا أفهم لماذا!.. وكأي شيء يعكر علاقتي بها أطرده من عقلي سريعا.. لكن يكرر الخاطر نفسه في رأسي مع كل رشفة.

أسحب حاسوبي من على المنضدة، وأفتحه لأتشاغل به، وأبدأ في ترتيب ملفاتي، لأعد لنقلها إلى الحاسوب الجديد، الذي لم

أشتره بعد. أشياء كثيرة أنتظر راتبي لشرائها، فلن أنهي ما معي من مال، فما زال الطريق طويلا. قفزت صورة نيلي إلى عقلي، وهي تسألني في المطار عما أحضرت لها من بلاد الفراعنة، فضحكت، فقالت بأنها جادة، ثم فكرت لدقيقة، قبل أن تسألني: أأنت بخيل؟.. بالتأكيد لست بخيلا، ولكن بعد كل ذلك الإنفاق من أجل الوصول هنا، لابد من بعض الحرص.

ما ذلك الملف، الذي لا يحمل اسمًا؟.. ياه!.. إنه البريد الالكتروني لرفيقة الطائرة!.. نعم لقد كتبت بريدي لها على الصفحة الأولى في كتابها، وكتبت بريدها في ملف على حاسوبي. كان لطيفة حقا، وغير فضولية.. إنها صفة نفتقدها جدًا في بلادنا. أتذكر أن اسمها كان لوبيتسيا..

لم تحاول أن ترسل لي منذ وصولنا.. ربما أبدأ أنا، ما المانع؟..كتبت لها رسالة قصيرة، أسألها عما وصلت له في المهجر، هل وجدت سكنا مناسبا، هل وجدت عملها كما كانت تتمنى، هل تتأقلم جيدًا هنا؟.. قلت لها إنني في مسكن بسيط، لكنه مناسب وقريب من عملي، وأحبه، وأن ظروف عملي أفضل كثيرًا جدا مما كانت في بلدي السابق، وأنني أحب المعاملات الرسمية هنا، ولكن أفتقد الحميمية في العلاقات الإنسانية، وأشرت إلى أن الأمر ربما أصعب بالنسبة لي عنها، لأنها من بيئة أوروبية أقرب شبها.

بعد أن ضغطت الإرسال، تذكرت شيئا، فأرسلت رسالة مكملة تحمل رقم هاتفي، وترحب بها صديقة البلاد الباردة، كما كانت رفيقة البداية في رحلة السفر.

نعم أفهم ما تعنيه رسالتي، فلست صبيا بريئا، وبالتأكيد أنا لا أستغرب نفسي، ولا أراني شريرًا.. كل ما في الأمر أنني ربما اختلفت عما كنت في مصر، ولكن أليس ذلك طبيعيا؟.. كل شيء من حولي اختلف، فالمنطقي أن أتكيف مع الاختلاف. حتى إحساسي بنيلي اختلف.. لوبيتسيا قد تملأ ذلك الفراغ الذي تتركه نيلي بغيابها. هي من تختار الغياب، سواء بإرادتها، أو إنها حقا مكبلة هناك.

لو أنني في مصر أفكر هكذا، لارتفعت شهقات الاستنكار من الأمر برمته، ولاتُهمت بخيانات كثيرة، من ناس يخدعون أنفسهم، ويدَّعون مثالياتٍ ليست بهم.. لكنني هنا أعيش الحياة الطبيعية، في بساطة دفنت تلك التعقيدات بجوار أحقر كلب أجرب.

عدت أتأمل النسكافيه، الذي لم يعد سوى بقايا في الكوب.. نعم النسكافيه أشربه زائفا، لكن من ينكر أنه ممتع لا يزال؟..

(٥٣)

– أمك تعبانة بقى لها شهر وأنا مش في الدنيا كده؟

زفر في ضجر..

– بأقول لك ايه أنتِ كمان. مش ناقصاكِ هي..

أشار بيده يسكتني، قبل أن أعترض..

– دكتور وبيتابعها.. وأنتِ هي اللي قالت ما أنكدش عليكِ وأنت لسه عروسة.. وبعدين ياختي ايه اللي فكرك بينا أصلا ما بقى لك شهر مااحناش في دماغك خالص؟

هاجمني، فأسكتني.. أنا المقصرة بالفعل.. بل إنني اليوم ما أتيت إلا لأنني احتجت المجئ. تركته، لأدخل إلى حجرتي، فبادرني:

– رايحة فين؟

التفت إليه متعجبة..

– داخلة اوضتي!

– لا دي بقت مخزن للمحل معلش.. ادخلي ريحي جنب أمك.

تمنيت لو أستطيع صفعه.. تراجعت عدة خطوات، وقلت:

– ايه يا حلو دور الكبير اللي أنت عايشه دا؟ لا.. كراكيب محلك أنت ترميها برة علشان أنا هاقعد مع ماما كام يوم لحد ما اتطمن عليها.. تسكت وتسمعني يا حبيبي.. أنا لِيّ هنا نفس اللي لك وكفاية قوي اللي ماما اديتهولك في المحل زيادة عن أي حد فينا.

– صوتكم علي والبجاحة مابقالهاش آخر معاكم!

كان صوت أمي يبتر الحديث، وهي تقف عند باب حجرتها، وتقول هذه العبارة. هممت إليها، وحاولت أن أسندها، فأبعدتني، وخرجت إلى الصالة، وجلست إلى كرسي السفرة..

– أنتِ ايه اللي جايبك النهاردة؟ متخانقة مع جوزك وللا ايه؟

احمر وجهي، ولم أرد. ليتني أستطيع النفي وادعاء النبل في سؤالي عنها.. أعفتني هي من الإجابة، وهي توجه كلامها لنصر، مستمرة في فحصي بنظراتها..

– أنت آخرك في البيت دا مع آخر يوم في امتحاناتك، وتكون شفت لك شقة ومكان لكراكيبك. الشقة أنا اتفقت على بيعها خلاص..

كانت هذه معلومة جديدة تماما عليّ، ولكن كان واضحا أن الوقت لا يلائم أي استفسار.. رفعت صوتها في حدة صارمة

ومنفعلة جدا..

– ومش عايزة مناقشة في الموضوع دا.. لما أموت ابقوا اورثوني مش هتورثوني بالحيا ولا هتعيشوني على مزاجكم..

التفتت إليّ..

– اتغديتِ؟

لم أكن أريد الأكل، فليس ذلك ما أحتاجه.. تأخرت في الرد، فقالت هي..

– أنت غضبانة من جوزك يعني.. ها.. قولي ايه اللي حصل..

منذ متى وأنا أحكي مشاكلي لها؟ هذا لم يحدث منذ سنوات المدرسة الإعدادية. لماذا تفترض أني أريد الحكي، أو أن هناك مشكلة من الأساس؟!.. لكن هذه أنا، فلم أكن لأجئ إلا إن كنت أبحث عن مكان بديل، بالتأكيد هي تفهمني إلى الحد الذي تدرك معه ذلك. لكن أسلوبها مستفز جدًا، ولا أجدني أستحقه. قالت:

– طيب.. قومي حضري لنا أي حاجة ناكلها..

التفتت إلى نصر..

– هتاكل معانا وللا نازل؟

قال في هدوء..

- ماليش نفس.

وقام ليدخل حجرته، ويجلس إلى مكتبه، ممسكا أحد كتبه الدراسية، تاركا الباب مفتوحا.

قامت هي متجهة إلى المطبخ، وهي تقول بصوت كفيل بأن يسمعه نصر بوضوح..

- قومي غيري هدومك وتعالي.. بس خدي بالك من كراكيب أخوكِ اللي مالية الأوضة.

بها قوة من نوع عجيب، يسيطر علينا، حتى وإن لم يبدُ منطقيا. ربما هي سطوة الأمومة، التي تسند تعثر صغيرها في أول خطواته، وتدس الطعام في فمه، وتمسك بيده ليكتب أول حروفه.. ربما من قبل ذلك، وفطرة ذلك الواهن تتعلم أن حبله السري يستقي الحياة له منها، ومن بعد خروجه إلى الدنيا، يظل يمتص بقاءه من ثديها.. يتعلم أن حياته معلقة بمنحتها، فيعي أنه خاضع لها.

لم يفتح نصر فمه باعتراض، ولم أشعر أنا بالنصر، بل كنت مضطربة، أفكر فيما يمكن أن أحكيه، أو أحتاج لأن أحكيه.

جلسنا معا، نأكل الخبز مع الجبن والسلاطة.. تعجبت.. أهذا طعامك يا أمي!.. تغير الأمر كثيرًا منذ زواجي، على ما يبدو!..

قالت:

– عارفة يا أسماء.. لو لك أصحاب ما كنتيش تيجي لي النهاردا.

وقفت يدي، قبل أن تصل للطبق.. "بتجيب من الآخر الست دي".. قلت:

– الستات ما يتصاحبوش يا أمي.

ضحكت، حتى لم تستطع أن تأكل.. كلما هدأ ضحكها، عادت للضحك، قبل أن تضع اللقمة في فمها. الضحك عدوى، انتقلت لي، فبدأت في الضحك أنا الأخرى، حتى ارتفع صوت نصر..

– مش عارف أركز!

تغيرت ملامحها فجأة، وبترت ضحكتها.. من الواضح جدا أن شيئا كبيرًا قد حدث بينهما. لن أسألها، فلا يبدو لي أنها قد تتكلم.. ربما أسأله هو ليلا، بعد أن تنام هي. تنهدت وسألتني بصوت مخنوق:

– مشكلتك في البيت وللا الشغل يا أسماء؟

– مشكلتي في لخبطة الاتنين سوا.

رفعت عينها إليَّ، وقالت في هدوء:

– لو المكان ما يفرقش معاكِ اتنقلي في حتة تانية تبقي فيها مش مع جوزك.

ابتسمت من قلبي..

– بتفهميها وهي طايرة يا ست الكل.

بدأت تضحك مجددًا، وهي تكتم ضحكتها، كي لا يعلو صوتها، ومن بين ضحكها، خرج كلامها متقطعا..

– أصلكم.. عشرة.. طويلة.. شوية..

كانت هذه المرة تضحك وتدمع معًا.. ليست دموع من الضحك الكثير؛ بل إن عينيها تبكيان فعلا!

(٥٤)

كنت أقفز السلالم ثلاثا ثلاثا.. حتى منال، التي كانت خارجة من شقة أمها، تجاهلتها، ووصلت إلى شقتنا، وطرقت الباب مزعجا كل من بالعمارة. أسمعها تسب – ذلك السباب المهذب، كما أطلق عليه – من الداخل، ويقترب صوتها، وأخيرًا تفتح لي..

– أنت مش معاك مفتاح وللا هي...

احتضنتها، بل وحملتها، ولففت بها على بسطة السلم، وأنا أضحك وأصرخ، وأقول لها:

– الأول يا ست الكل.. بركاتك يا حبيبة نصر.. دعاك وقلبك الطيب يا أمي..

لم تتكلم أبدًا.. بكت.. ناحت وزغردت معًا.. احتضنتني بقوة.. تشير لي أن أنزلها إلى الأرض، فأنزلها، وتظل تشير أنها تريد أن تقول شيئًا.. ولا تستطيع أن تقول أي شيء، ويرتفع بكاؤها أكثر.

يخرج جابر (خالي) من شقته بالدور الأسفل منا، بسرواله القصير، وفانلته الداخلية، ويصرخ فينا..

– ايه قلة الذوق دي.. ما هو لو في بيتكم راجل كان

علمك الأدب.. لمي ابنك يا ولية الناس نايمة في ساعة الضهرية دي.

بكل جرأة، تعودت عليها منها مؤخرًا، بصقت نحوه، وجذبتني لداخل الشقة، وصفقت الباب..

بحنان قلت لها..

– كنتِ قلتِ له يا ست الكل إني نجحت كان هيفهم..

بأنفة قالت:

– ما يستاهلش.. ماله بفرحنا؟ هو من امتى جالنا في شدة علشان نعبره في فرحة؟!

قبلت رأسها، ويدها، ونظرت في عينيها القويتين..

– سامحتيني ولا لسه يا أمي؟.. والله العظيم ما لمستها من ساعة ما غضبتِ مني.

ابتسمت، وتركت دموعها تسيل في صمت، وربتت على كتفي..

– بادعيلك يابني.. بادعيلكم كلكم أنت وأخواتك.. والواد الكبير اللي قاطع ولا كأن له أم يفتكرها..

ضحكت ضحكة هادئة، وأكملت محاولة التفكه..

– بس تعرف.. برضه عمل خير.. خلاني أعذر أبوك

وأسامحه.

أحاول الابتسام، ولكن عيناي تحير في ملامحها، وأتوه في أفكار كثيرة.. لو تعلم هذه المرأة كم أراها عظيمة!.. تقاطع شرودي وتقول:

- كلم أختك فرحها بك..

أخرجت هاتفي من جيبي، لأنفذ طلبها، وهي تقول:

- كدا إن شاء الله معيد في الجامعة؟

ضممت قبضتي يديّ، وقلت من قلبي..

- يا رب.. بس ادعي لي أنت قوي يبقى في درجة تعيينات.

كلمت أسماء، التي هللت وقالت إنها ستحضر تورتة وتجئ هي وضياء لنحتفل معا، وقالت لي: "بس أنت مش كنت ناوي تبقى ميكانيكي؟"، وضحكت تلك الضحكة، التي قلما نراها منها.. بحثت بعيني فوجدت أمي تبعد هاتفها عن أذنها، وتضغط زرًا فيه، وقد ابتعدت إلى الشرفة. غالبا هي تحاول الاتصال بأشرف..

- كنت باحاول أتصل باخوك.. أكيد برضه هيفرح لك.

الفرحة الصافية لم تعرف طريقها لقلب هذه المرأة أبدا.. وقت خطبة أسماء، كان أشرف مريضا، ووقت زفافها، كان قد حان

سفره.. والآن، رغم استسلامها لواقع غيابه، إلا إنها كانت تأمل منه على الأقل في مشاركتنا الفرح على الهاتف. فرت منها دمعة، وهي تومئ بذقنها إلى شيء ما بالشارع، فالتفت.. كان صبي يركب الدراجة، ويحمل أقفاص الخبز على رأسه. لم أفهم ماذا به.. حاولت أن أغير الموضوع..

– أنت لسه ناوية تبيعي الشقة دي برضه؟

رفعت حاجبيها، وسبابتها محذرة..

– مش عايزة كلام في الموضوع دا خلاص.

تنهدت..

– ومش عايزاني أقعد معاكِ برضه؟

ضحكت..

– مش عايزة كلام في الموضوع دا تاني.. أسيب الشقة دي وجدك اللي متبت فيها لمين يعني؟.. أدينا قاعدين جنب شغلك.

قفزت صارخا.. قاطعتني..

– بس أنت هتشتريها مني بالتقسيط يا نصر والفلوس هتتحط لاخواتك علشان ما ابقاش ظلمت حد فيكم.

– اللي تأمري بيه يا ست الكل.. حقك وحقهم طبعا.. والمحل شغال الحمد لله ودكتور إدريس ما شاء الله عامل فيه شغل زي الفل.

(٥٥)

الأمور تسير إلى الأفضل.. أتأقلم بسرعة على الحياة، كما يحيونها أهل المكان. اليوم، أثناء المرور على الحالات، قلت اقتراحا لتشخيص أحد الحالات المستعصية التشخيص، فطلب مني البروفيسور إعداد ورقة علمية عن الفكرة.. إنها بداية طريق الترقي.. أنا حقًا سعيد جدًا، وأعتبرها مناسبة تستحق احتفالا صغيرًا، وسأبدأ في البحث من الليلة، فلن أدع فرصة لإثبات نفسي إلا وأقتنصها بإصرار.

علاقتي بلوبيتسيا جميلة جدًا، سنحتفل اليوم معًا بمناسبتي الخاصة هذه. إنها إنسانة مرحة، تضع مستقبلها قبل أي شيء، تتفهم انشغالي، وتشجعني وتفرح بحماسي وطموحي العلمي. ظروف بلادها الفقيرة المنهكة، وعملها لفترة في ليبيا، كل ذلك جعل تفاهمنا أقرب مما أتوقع من الأوربيين.. منذ فترة انتقلت لتقيم معي، رأينا معا أن لا داعي لزيادة النفقات بمسكنين. بدأت أشعر بالراحة والسعادة والاستقرار.. وربما نقرر الزواج يومًا ما.

كلمتني كيرا قبل كل ذلك.. كانت عكس ما توقعت تماما، امرأة لطيفة، تتحدث بمنطقية ومرح. أكدت لي أنها ونيلي سعيدتين، وأن نيلي محرجة مني، لا تدري كيف تبلغني قرارها

الأخير، فقد فكرت نهائيا أنها لن تستطيع أن ترافق عربيا بعد ما قاسته في غربتها عندهم، وأتبعت ذلك بعبارة: "أنت طبيب ذكي، وطبعا تفهم..". لم أقف كثيرًا أمام كلامها، ومدى صدقه أو كذبه. في كل الأحوال النتيجة أن الخطة يجب أن تتغير، وأن حياتي تتسع الآن لاستقبال لوبيتسيا.

يرن هاتفي.. إنها أمي. لا يمكنني الرد عليها الآن، فإن سمعت صوت لوبيتسيا، ستسأل بالتأكيد. في نفس الوقت لا أستطيع أن أبدو كطفل غير ناضج، وأطلب من لوبيتسيا ألا تصدر صوتًا كي لا تسمعها أمي. ربما أتصل أنا بها في وقت آخر..

(٥٦)

"ابن حلال ضياء.. ومستحملني والله كتر خيره"

تعلمت من أمي دائما أن الزواج ليس رحلة سعيدة جدا، ولكنها رحلة جيدة، وطبيعية، وأفضل من المضي وحدي. أحاول أن أتأقلم – في حدود مقدرتي فقط – على الإحساس بأن لي ولي أمر. هو أيضا أصبح يقبل – إلى حد كبير ألا يتدخل في أموري بالعمل، ويبعد علاقتنا كزميلين عن رابطتنا كزوجين، ولم أضطر للانتقال إلى مكان آخر.

كلانا قد تغير، حتى إننا أصبحنا نتقبل بعض قرارات ذلك الرئيس الجديد. هدأت ثوريته، واستبدل جزء منها بشيء من الحكمة والواقعية، وتبدلت لا مبالاتي، وأصبحت أشاركه بعض الاهتمام بالسياسة والأحوال، وأحس بالانتماء للمكان، ناسية نظريتي الأثيرة بعدم الاعتراف بالحدود.

وأخيرًا، وافقت على أن يصبح لنا طفل، مشترطة عليه أن يفهم جيدًا أننا سيكون لنا طفل، لا أننا سيربط بيننا طفل.. وها هي نتيجة التحليل تأتي إيجابية.. سيفرح بالطبع. لا داعي للمكابرة.. نعم أنا أيضًا سعيدة.

(٥٧)

وأخيرًا كانت سمر، زميلتي بالمعهد، والتي تم تعيينها هي الأخرى معي به. لقد وافقت على الزواج والإقامة مع أمي. أجمل ما فيها أنها معجبة بتقديسي لأمي، وتراه جميلا، لا تغار منه، كعادة الفتيات. أمي كذلك راضية عن اختياري، وتتعجل زفافي.. لكنها تقول لي شيئا لا أفهمه.. "شهل واتجوز بقى خليني افرح بك أحسن جدك بقى متنح لي في البيت".. لا أدري، هل عاد مرضها النفسي؟.. حين حكيت لأسماء، اصفر وجهها، واستعاذت بالله؛ لكنها لم ترحني بمعنى واضح.

على كل حال، لقد حددت مع أبي سحر موعدًا، لنعقد القران في مسجد، وتسهر عائلتانا في مكانٍ راقٍ، وينتهي الأمر بلا مظاهر لا أحد منا يحبها. العرض جيد للجميع، فلن يتكلف أبوها شيئا سوى جهازها الشخصي، وأنا لن أتكلف سوى حجرة نوم، وأمي جعلت سحر تختار شبكتها من علبة مصوغاتها، مقنعة إياها أن دفع المصنعية في الجديد سيجعل شبكتها هزيلة، ورفضت أن أدفع شيئا، قائلة إنها مقابل ذلك الخاتم، الذي أهدته جدتي لأسماء.

(٥٨)

يا سندباد.. يا ابن ذاك السندباد.. وقد انتهيت ولست أبدا سندبادي.. أدمنت تركك واغترابك وانفرادي.. أدمنت إقلاع الأيادي.. عن مصافحة الحياة.